كلية اللغة العربية والدراسات الإنسانية
قسم التاريخ والحضارة

College of Arabic Language and Humanities Studies
Department of History and Civilization

محاضرات نيرات

في

السيرة النبوية

(تـرخ ٣٠٠١)

أ د. سامح بن إبراهيم عبد الفتاح

١٤٤٦هـ / ١٤٤٧هـ

iu.edu.sa

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١)

(١) سورة الأحزاب: آية:٢١.

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا مُحَمَّد الذي قال الله عنه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾(١)، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره، وسلَّم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن نعم الله على عباده كثيرة لا تحصى وإن من أجلِّها وأعظمها نعمة الإسلام، فالحمد لله الذي منَّ علينا بالإسلام، وأكرمنا بنبينا مُحَمَّد ﷺ، وجعل الاقتداء به وتتبع أثره غاية كل مسلم صادق يريد الوصول إلى السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

ومما لا ريب فيه أن الدين الإسلامي له شرائع ونظم، منها ما يتعلق بالعبادة ومنها ما يتعلق بالأخلاق والمعاملات والسياسة وغيرها، وهذه كلها مجموعة في أفعال الرسول ﷺ، وأقواله وتقريراته وصفاته، ولا تُعْرَفُ تلك الشرائع إلا باتباع هدي النبي ﷺ، قال جل شأنه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٢)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٣)، بل وحَذَّر الله من مخالفته، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

ومعلوم أن التأسي والاقتداء فرع عن العلم والمعرفة بسيرته ﷺ إذ لا يتأتى اقتداء به ولا اتباع لمنهجه ولا لزوم لهديه إلا بمعرفة سيرته وشمائله وخلاله العظيمة ولهذا يتأكد على كل مسلم أن يعتني بدراسة سيرة النبي ﷺ فعليها توزن الأعمال وتقاس، يقول سفيان ابن عيينة رحمه الله: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمِيزَانُ الْأَكْبَرُ، فَعَلَيْهِ تُعْرَضُ الْأَشْيَاءُ، عَلَى خُلُقِهِ وَسِيرَتِهِ وَهَدْيِهِ، فَمَا وَافَقَهَا فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ الْبَاطِلُ»(٥).

ومما لا شك فيه أيضاً أن سيرته ﷺ قد اشتملت على أقواله وأفعاله وتقريراته، فهي إذاً التجسيد الحيّ لتعاليم الإسلام، بل هي الصورة المشرقة لسلوكيات النبي ﷺ، وأصحابه، فسيرة النبي ﷺ تطبيق للقرآن وعمل به حيث قام رسول الله ﷺ أتم قيام بأوامر القرآن فعلاً، ونواهيه اجتناباً وتركاً، وآدابه خلقاً وعملاً وتطبيقاً؛ فحياته ﷺ وسيرته عملٌ تام وتطبيق كامل لكتاب الله تبارك وتعالى.

وفي دراسة سيرته ﷺ ومعرفة أخباره غذاء للقلوب، وبهجة للنفوس، بل هي جزء من دين الله سبحانه وتعالى وعبادة يتقرب بها إليه، فبها تعميق لمحبته وهي مطلب شرعي لا يكتمل الإيمان إلا به، وقد عاب الله عز وجل الكفار من قريش في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾(٦)، فهم مع معرفتهم بصدقه وأمانته كذبوه وكأنهم لا يعرفون شيئاً عنه.

---

(١) سورة الأحزاب: آية:٤٣.

(٢) سورة الحشر: آية:٧.

(٣) سورة الأحزاب: آية:٢١.

(٤) سورة النور: آية:٦٣.

(٥) البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت ٤٦٣ هـ): الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤٤٤ هـ / ٢٠٢٣م، (١/ ٧٩).

(٦) سورة المؤمنون: آية:٦٩.

ومن هنا عني الصحابة ﷺ بالسيرة النبوية منذ وقت مبكر تعلُّماً وتعليماً ورواية، فهم على علم دقيق وواسع بالسيرة لأنهم عايشوا أحداثها وشاركوا في وقائعها وكانت محبتهم للنبي ﷺ وتعلقهم به، ورغبتهم في اتباعه، وأخذهم بسنته في الأحكام، دافعاً لهم لمعرفة ما غاب عنهم من تفصيلاتها، وسبباً لمذاكرتهم فيها، وحفظهم لها ... وقد اشتهر عدد من الصحابة باهتمامهم؛ منهم أبو بكر الصديق، وعبد الله بن عباس، والبراء بن عازب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله ﷺ، فهؤلاء وغيرهم اعتنوا عنايةً بالغةً بالأحاديث المتعلقة بالسيرة النبوية، فنقلوا لنا أخبار رسول الله ﷺ؛ ووصفوه على كل أحواله في حياته الخاصة والعامة(١).

وصفوا هيئته وشعره، وترجله، وشيبه، وخضابه، وكحله، ولباسه، وخفه، ونعله، وخاتمه، وسيفه، ودرعه، ومغفره، وعمامته، وإزاره، ومشيته، وتقنعه، وجلسته، ونومته، وفراشه، ووسادته، وما جاء في اتكائه، وصفة أكله، وشرابه، وخبزه، وإدامه، وفاكهته، وما يقول قبل الطعام، وبعده، وقدحه، وكيف كان كلامه، ومسامرته وقصصه، وضحكه وتبسمه، ومزاحه، وعبادته، ووضوئه، وتعطره، وطيبه، وتطوعه في بيته، وصومه، وتلاوة القرآن، وبكائه وخشوعه، وتواضعه، وأخلاقه، وأسمائه الكريمة، ومعاشرته، وسنه، ووفاته، وميراثه، وحجامته(٢)، كما كانت لهم عناية كبيرة بمغازيه ﷺ فنقلوا أخبارها ممن كان شاهداً لها ومشاركاً في أحداثهما كل هذه التفصيلات التي يندر أن تجدها عن رجل في التاريخ نقلوها إلينا بطريقة موثقة عز أن توثق بها نصوص تاريخية، وتركوا لنا سيرة كاملة الأحداث والتفصيلات، وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ حقاً كان أحب إليهم من كل ما سواه من البشر، فما كان لمدع أن يكون له هذا الحب، ولا هذه العناية ولا هذا التكريم والتعظيم بنفسي، وأبي، وأمي هو ﷺ، يقول أنس ﷺ : «لم يكن شخص أحبَّ إلينا من رسول الله ﷺ »(٣).

فحدد أنس ﷺ طول شعره ﷺ قال: «كان إلى نصف أذنيه»(٤)، وأخبر أنه كان يكثر من دهن رأسه وتسريح لحيته، وعدَّ الشعرات البيضاء في رأسه ولحيته عشرين شعرة وهو العدد الذي ذكره عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ووصف ابن عباس اكتحاله ﷺ بالإثمد ثلاثاً قبل أن ينام.

وتداول الصحابة ﷺ رواية أحداث السيرة التي شاركوا في وقائعها وأسهموا في صناعة أحداثها في مجالسهم وكان من لم يشهد بعض الأحداث حريصاً على تعلمها ممن شهدها وإذا سئل المشاركون في الوقائع لم يبخل أحد منهم عن التحديث بها فتعطرت بها مجالسهم وعنوا بروايتها وتعليمها من خلفهم من صغار الصحابة ومن أبنائهم وتابعيهم تعليماً كتعليم سور القرآن الكريم حفظاً وفهماً وأمثلة ذلك كثيرة منها: رواية أبي بكر الصديقﷺ لأحداث الهجرة النبوية كما جاء عند

---

(١) الزهراني، ضيف الله بن يحي: مصادر السيرة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، (ص ١٠، ١١)

(٢) للمزيد تراجع الأبواب الخاصة بهذه الشمائل عند. الترمذي، مُحَمَّد بن عيسى بن الضحاك، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ): الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، تحقيق: سيد بن عباس الجليمي، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، ط١، مكة المكرمة، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م.

(٣) الترمذي، مُحَمَّد بن عيسى بن الضحاك، أبو عيسى: الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيرت، لبنان، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م، (٤/ ٤٦٦).

(٤) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ): السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، دار الرسالة، ط١، بيرت، لبنان، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٢١م، (٨/ ٣١٩).

البخاري عن أبي إِسْحَاقَ قال: «سَمِعْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ يَقُولُ: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى أَبِي فِي مَنْزِلِهِ فَاشْتَرَى مِنْهُ رَحْلًا فَقَالَ لِعَازِبٍ ابْعَثْ ابْنَكَ يَحْمِلْهُ مَعِي قَالَ فَحَمَلْتُهُ مَعَهُ وَخَرَجَ أَبِي يَنْتَقِدُ ثَمَنَهُ فَقَالَ لَهُ أَبِي: يَا أَبَا بَكْرٍ حَدِّثْنِي كَيْفَ صَنَعْتُمَا حِينَ سَرَيْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: نَعَمْ أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَمِنْ الْغَدِ حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ وَخَلَا الطَّرِيقُ لَا يَمُرُّ فِيهِ أَحَدٌ فَرُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ فَنَزَلْنَا عِنْدَهُ وَسَوَّيْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَكَانًا بِيَدِي يَنَامُ عَلَيْهِ وَبَسَطْتُ فِيهِ فَرْوَةً وَقُلْتُ نَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ فَنَامَ وَخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِهِ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا فَقُلْتُ لَهُ لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ فَقَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ قُلْتُ أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ أَفَتَحْلُبُ قَالَ نَعَمْ فَأَخَذَ شَاةً فَقُلْتُ انْفُضْ الضَّرْعَ مِنْ التُّرَابِ وَالشَّعَرِ وَالْقَذَى قَالَ فَرَأَيْتُ الْبَرَاءَ يَضْرِبُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى يَنْفُضُ فَحَلَبَ فِي قَعْبٍ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ وَمَعِي إِدَاوَةٌ حَمَلْتُهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَرْتَوِي مِنْهَا يَشْرَبُ وَيَتَوَضَّأُ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ فَوَافَقْتُهُ حِينَ اسْتَيْقَظَ فَصَبَبْتُ مِنْ الْمَاءِ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ فَقُلْتُ اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ ثُمَّ قَالَ أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ قُلْتُ بَلَى قَالَ فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا مَالَتْ الشَّمْسُ وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ فَقُلْتُ أُتِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(١) فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَارْتَطَمَتْ بِهِ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا أُرَى فِي جَلَدٍ مِنْ الْأَرْضِ شَكَّ زُهَيْرٌ فَقَالَ إِنِّي أُرَاكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوَا لِي فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَنَجَا فَجَعَلَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هُنَا فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ قَالَ وَوَفَى لَنَا»(٢).

ومن الشواهد أيضاً أن عمير بن وهب الجمحي بعد أن حرضه صفوان بن أميه على قتل النبي ﷺ ووصل المدينة وجد عمر بن الخطاب ﷺ في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون نصر الله لهم، وما أراهم من عدوهم(٣)، كما كان صهيب الرومي ﷺ يؤثر الحديث عن مغازي رسول الله ﷺ ويقول: «هلم نحدثكم عن مغازينا»(٤).

---

(١) سورة التوبة (آية: ٤٠).

(٢) البخاري، أبو عبد الله، مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٢٥٦): صحيح البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، طبعة مصورة عن الطبعة: السلطانية بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني، صَوّرها بعنايته: د. مُحَمَّد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى عام ١٤٢٢ هـ لدى دار طوق النجاة – بيروت، مع إثراء الهوامش بترقيم الأحاديث لمحمد فؤاد عبد الباقي، باب علامات النبوة في الإسلام، (٤ / ٢٠١، ٢٠٢)، رقم الحديث ٣٦١٥؛ النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت: ٢٦١ هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥م، باب في حديث الهجرة ويقال له حديث الرحل، (٤/ ٢٣٠٩)، رقم الحديث ٣٠١٤.

(٣) المعافري، عبد الملك بن هشام الحميري، (ت ٢١٣هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، القاهرة، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، (١/ ٦٦١).

(٤) الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله (ت: ٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين، مع تضمينات الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في أماليه والمناوي في فيض القدير وغيرهم تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤١١ هـ /١٩٩٠م، باب ذكر مناقب صهيب بن سنان الرومي مولى رسول الله، (٣/ ٤٥٣)، رقم الحديث ٥٧١١.

ومن هؤلاء سعد بن أبي وقاص ﷺ الذي يقول لأبنائه وهو يعلمهم السيرة: «يا بنيّ هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها»(١)، يقول حفيده إسماعيل بن مُحَمَّد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ وسراياه ويعدُّها علينا، ويقول: يا بني! هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»(٢).

وحفظ هذه المآثر يمثل مجد الأمة الذي يجب أن تستحضره الناشئة في وجدانها، وشرفها الذي يجب أن تحافظ عليه مهما تباعد الزمان، ومعرفة المجد والشرف والمآثر تصنع للشباب هوية، وتغذي فيهم سمو الشخصية، وتزيد ثقتهم بأمتهم ودينهم وأنفسهم، إذْ يرون في أنفسهم امتداداً لتلك الأمجاد التي بدأها الأجداد، فتنبعث فيهم النظرة الإيجابية، ويتوقد فيهم الأمل، ويتخلَّق الطموح وتعلو الهمم، وهو الأمر الذي ينبغي أنْ يكون عليه شباب الإسلام؛ برغم المحن والفتن والبلايا.

يقول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ: «كنا نُعلِّمُ مغازي النبي ﷺ وسراياه كما نُعلِّمُ السورةَ من القرآن»(٣).

والمقصود أنهم كانوا يتلقون السيرة النبوية ضمن تعليمهم وأنَّ تعلُّمَهم لها كان من حيث الأهمية موازياً لتعلم القرآن الكريم، وليس ذلك بنقص في استشعار أهمية القرآن، وإنما هو منهجية تربوية في تعليم العلوم وغرس القيم.

وأما عبد الله بن عباس ﷺ: الحبر البحر ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن، فقد كان من المُكْثِرين من رواية السِّيَر والمغازي؛ إذ روى العديد من الروايات التي صاغ منها التابعون كُتُبَهم وصُحُفَهم في مادة السِّيَر، ونقل عنه ابن إسحاق الكثير من الروايات عن مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهي طريق جيدة وإسنادها حسن، خرَّج منها ابن جرير، وابن أبي حاتم والطبراني في المعجم الكبير» (٤).

وابن عباس له ما يميزه في خدمة هذا العلم على حداثة سنَّه(٥) فهو ابن عم رسول الله ﷺ، وقريب من بيته؛ فخالته ميمونة زوج النبي ﷺ وكان يبيت عندها فيلتقي برسول الله ﷺ في بيت واحد، وينام معه على وسادة واحدة؛ وله عناية كبيرة بنقل الأخبار عن دقائق حياة النبي ﷺ الداخلية ممَّا لم يكن لغيره من الرجال سبيل للاطِّلاع عليه، وله عناية أيضاً بما لم يشهده من الأحداث والوقائع فجمع أخبارها واستقصى مادتها من كبار الصحابة ويشهد على ذلك قوله: «كنت ألزم أكابر أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن في ذلك وكنت لا آتى أحداً منهم إلا سُرَّ بإتياني لقربي من رسول الله»(٦).

---

(١) الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (ت ١٠٤٤هـ): إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون = السيرة الحلبية، دار الكتب العلمية ، ط٢، بيروت، ١٤٢٧هـ ، (١/ ٥).

(٢) البغدادي (ت ٤٦٣ هـ): الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (٢/ ١٩٥).

(٣) البغدادي (ت ٤٦٣ هـ): الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (٢/ ١٩٥).

(٤) عبد الجواد، خلف مُحَمَّد: مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، دار البيان العربي، القاهرة، د–ت، ص ٨٣.

(٥) حيث مات النبي ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة، ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، (٨/ ٣٢٥).

(٦) ابن سعد، مُحَمَّد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ): الطبقات الكبير، تحقيق: علي مُحَمَّد عمر، دار الخانجي، ط١، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، (٢/ ٣١٨– ٣٢٠).

لم يقتصر ابن عباس على السؤال في حفظ أخبار السيرة بل كان يكتب ما يسمعه من أجوبة عن الاستفسارات التي كان يطرحها على الصحابة، حتى رآه بعض الناس وقد حمل ألواحاً يكتب عليها عن أبي رافعة شيئاً من فعل رسول الله ﷺ(١).

فاق ابن عباس غيره في العلم، والفقه، والحديث والتأويل والتفسير، والسير والمغازي، وغيرها من العلوم ولذا قدَّمه عمر ﷺ في مجلسه على شيوخ الصحابة وكان يستشيره في الأمر إذا أهمَّه، فقال له المهاجرون: «ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس، قال: «ذاكم فتى الكهول؛ إن له لساناً سؤولاً، وقلباً عقولاً» ﷺ (٢).

وعناية ابن عباس ﷺ بأسباب نزول القرآن دليل على اهتمامه بالسيرة والمغازي، كل هذه المؤهلات أتاحت له ﷺ أن يعقد مجلساً في المدينة المنورة يروي فيه مغازي رسول الله ﷺ لطلابه الذين يتعلمون منه، روى ابن سعد في الطبقات: «أن ابن عباس ﷺ كان يجلس يوماً لا يذكر فيه إلا الفقه ويوماً التأويل ويوماً المغازي ويوماً أيام العرب، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً»(٣).

وروى الذهبي عن الواقدي قال: «حدثنا ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله، قال: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبق، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، ونائل، وما رأيت أحداً أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كنا نحضر عنده، فيحدثنا العشية كلها في المغازي، والعشية كلها في النسب، والعشية كلها في الشعر»(٤).

لكن الملاحظ على جهود الصحابة ﷺ أنها تمثلت في المشاركة في الأحدث مع النبي ﷺ وحفظ تفصيلاتها، ونقلها لصغار الصحابة والتابعين ممن لم يشهدها وتعليمهم إياها في مجالسهم، وتوصيتهم من بعدهم بحفظ هذه المآثر.

يتضح ما سبق وعي الصحابة ﷺ منذ هذا الوقت المبكر بأهمية وقيمة السيرة النبوية ودراستها وروايتها لصغار الصحابة **وجيل التابعين وتابعيهم هم من عنوا بالتدوين والكتابة ولم يكتفوا بالتلقي والحفظ.**

ثم توالت الجهود في حفظ السيرة النبوية في جيل التابعين الذين قاموا بتدوينها وكتابة أحداثها فنقلوها من الصدور إلى السطور ليتم الله النعمة بضبط هذا العلم بكل تفصيلاته حتى أن من بقي من الصحابة شهد للتابعين بجهودهم المشكورة، كان الشعبي يحدث بالمغازي، فمر ابن عمر فسمعه وهو يحدث بها فقال: «لهو أحفظ لها مني، وإن كنت قد شهدتها مع النبي ﷺ»(٥).

---

(١) ابن سعد: الطبقات، (٢/ ٣٢٠).

(٢) الذهبي، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، تقديم: بشار عواد معروف، دار الرسالة، ط ٣، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ٣/ ٣٤٥.

(٣) ابن سعد: الطبقات، (٢/ ٣١٨).

(٤) الذهبي، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م، (٥/ ١٥٧).

(٥) الردواني، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن سليمان المغربي المالكي (ت ١٠٩٤هـ): جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزَّوائِد، تحقيق وتخريج: أبو علي سليمان بن دريع، مكتبة ابن كثير، الكويت، دار ابن حزم، بيروت ط ١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، (٤/ ٢٢) ، رقم الحديث: ٩١١٩.

تعريف السيرة النبوية:

علم السيرة أشرف العلوم التاريخية لتعلقه بحياة النبي ﷺ وارتباط هذه الحياة بالقرآن وإرساء قواعد الدين، والسِّيرَةُ **في اللغة:** تعني السُّنَّة والطَّرِيقَةُ والحالة التي يكون عليها الإنسان يقال: سارَ بِهِمْ سِيْرَةً حَسَنَةً(١)، ومنها قوله سبحانه وتعالي: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾(٢).

السيرة النبوية اصطلاحاً: تعني التعرف على حياة النبي ﷺ بما اشتملت عليه من الأحداث والوقائع التي مر بها وشاركه فيها أصحابه ﷺ من مولده حتى وفاته، ويضاف إليها أوصافه وأخلاقه وشمائله ودلائل نبوته وغزواته ودعوته ﷺ لفهم معاني شخصيته، والسيرة النبوية تشتمل على ذكر أدق التفاصيل عن حياة نبينا مُحَمَّد ﷺ في المرحلتين المكية والمدنية(٣)، وهي صفحة عريضة وحيدة، من صفحات الجهاد لإنقاذ البشريَّة، ومثلاً صادقاً فريداً وحيداً لمُثُلِ البرِّ والمرحمة العالية، رفيعة الشأن، جليلة القدر، عظيمة النفع، كبيرة الفائدة(٤).

نشأة مكة وبناء الكعبة.

١ – مجيء إبراهيم بزوجه وولده إسماعيل إلى مكة.

كان إبراهيم يعيش وزوجه سارة بأرض العراق، ولما جرى له من قومه ما جرى من التكذيب والإيذاء ذهب إلى بلاد الشام واستوطنها فأعطته زوجه خادمتها هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام، ولما غارت سارة، أمره الله بإبعادهما عنها، فذهب بهما وأسكنهما في مكة بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم ليقيموا الصلاة، وبعد ذلك رزق الله سارة وزوجها إبراهيم بإسحاق عليه السلام كما ذكر الله بشارة الملائكة لهما ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾(٥).

وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا كانَ بيْنَ إبْرَاهِيمَ وبيْنَ أَهْلِهِ ما كَانَ، خَرَجَ بإسْمَاعِيلَ وأُمِّ إسْمَاعِيلَ، ومعهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، فَيَدِرُّ لَبَنُهَا علَى صَبِيِّهَا، حتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إبْرَاهِيمُ إلى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إسْمَاعِيلَ، حتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِن ورَائِهِ: يا إبْرَاهِيمُ إلى مَن تَتْرُكُنَا؟ قالَ: إلى اللَّهِ، قالَتْ: رَضِيتُ باللَّهِ، قالَ: فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ ويَدِرُّ لَبَنُهَا علَى صَبِيِّهَا، حتَّى لَمَّا فَنِيَ المَاءُ،

---

(١) ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الإفريقي (ت ٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، ط٣، بيروت ، لبنان، ١٤١٤هـ، (٤/٣٩٠).

(٢) سورة طه: (آية: ٢١).

(٣) العواجي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد: أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، المدينة المنورة، (ص ٧).

(٤) نصار، عمار عبودي مُحَمَّد حسين: تطور كتابة السيرة النبوية، الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٤١٨هـ، (ص ٢٨)؛ المرصفي، سعد: الجامع الصحيح للسيرة النبوية، مكتبة ابن كثير، ط١، الكويت، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م، (١/ ١٥– ١٩).

(٥) سورة هود: (آية رقم: ٧١)؛ ابن عبد الوهاب النجدي، الشيخ مُحَمَّد (ت: ١٢٠٦هـ): مختصر سيرة الرسول ﷺ، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ، (ص١٨).

قالَتْ: لو ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، قالَ فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا فَنَظَرَتْ، ونَظَرَتْ هلْ تُحِسُّ أَحَدًا، فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الوَادِيَ سَعَتْ وأَتَتِ المَرْوَةَ، فَفَعَلَتْ ذلكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قالَتْ: لو ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ ما فَعَلَ، تَعْنِي الصَّبِيَّ، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هو علَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ(١)، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا، فَقالَتْ: لو ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ، لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ ونَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، حتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قالَتْ: لو ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ ما فَعَلَ، فَإِذَا هي بصَوْتٍ، فَقالَتْ: أَغِثْ إنْ كانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا جِبْرِيلُ عليه السلام، قالَ: فَقالَ بعَقِبِهِ هَكَذَا، وغَمَزَ عَقِبَهُ علَى الأَرْضِ، قالَ: فَانْبَثَقَ المَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفِرُ، قالَ: فَقالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: لو تَرَكَتْهُ كانَ المَاءُ ظَاهِرًا. قالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ المَاءِ ويَدِرُّ لَبَنُهَا علَى صَبِيِّهَا»(٢).

٢- نزول قبيلة جرهم مكة ومصاهرتهم إسماعيل عليه السلام.

بعد أن استقرت هاجر بولدها عند الماء مَرَّ نَاسٌ مِن قبيلة جُرْهُمَ(٣) ببَطْنِ الوَادِي، فَإِذَا هُمْ بطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وقالوا: ما يَكونُ الطَّيْرُ إلَّا علَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بالماءِ، فعاد وأَخْبَرَهُمْ، فأتَوْا إلَيْهَا فَقالوا: يا أُمَّ إسْمَاعِيلَ، أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَسْكُنَ معكِ، فَأذنت لهم على ألا يكون لهم من البئر إلا الشراب ولما بَلَغَ ابنُهَا تزوج امْرَأَةً منهم، قالَ: ثُمَّ إنَّه بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ أن يزور ولده، فَلما جَاءَ سَلَّمَ على أهل بيت ابنه، وسأل أَيْنَ إسْمَاعِيلُ؟ فَقالتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، قالَ: قُولِي له إذَا جَاءَ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ، قالَ: أَنْتِ ذَاكِ، فَاذْهَبِي إلى أَهْلِكِ، قالَ: ثُمَّ إنَّه بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، زيارته مرة ثانية: فَجَاءَ، فَقالَ: أَيْنَ إسْمَاعِيلُ؟ فَقالتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقالَتْ: أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وتَشْرَبَ، فَقالَ: وما طَعَامُكُمْ وما شَرَابُكُمْ؟ قالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وشَرَابُنَا المَاءُ، قالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لهمْ في طَعَامِهِمْ وشَرَابِهِمْ، قالَ: فَقالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: بَرَكَةٌ بدَعْوَةِ إبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عليهما وسَلَّمَ(٤).

٣- بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت.

قالَ: ثُمَّ إنَّه بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، يزور إسماعيل، فَجَاءَ فَوَافَقَ إسْمَاعِيلَ مِن وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا له، فَقالَ: يا إسْمَاعِيلُ، إنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ له بَيْتًا، قالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قالَ: إنَّه قدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عليه، قالَ: إذَنْ أَفْعَلَ، فَقَاما فَجَعَلَ إبْرَاهِيمُ يَبْنِي، وإسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ ويقولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾(٥) قالَ: حتَّى ارْتَفَعَ البِنَاءُ، وضَعُفَ الشَّيْخُ عن نَقْلِ الحِجَارَةِ، فَقَامَ علَى حَجَرِ المَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ (٦).

---

(١) يَنْشَغُ: يشهق، ونَشَغَ يَنْشَغُ نَشْغاً :شَهِقَ حَتَّى كَادَ يُغْشى عَلَيْهِ. ابن منظور: لسان العرب، (٨/٤٥٥).

(٢) البخاري: الصحيح، باب يزفون النسلان في المشى، (٤/ ١٤٤)، رقم الحديث ٣٣٦٥.

(٣) جرهم: قبيلة عربية قحطانية هاجرت من اليمن بعد انهيار سد مأرب واستقرت بمكة ولم يزالوا بها إلى أن نزلها إسماعيل عليه السلام فنزلوا عليه فتزوج منهم وتعلم لغتهم. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبنانين، ط ٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٢١١.

(٤) البخاري: الصحيح، باب يزفون النسلان في المشى، (٤/ ١٤٤)، رقم الحديث ٣٣٦٥.

(٥) سورة البقرة: آيه ١٢٧ .

(٦) البخاري: الصحيح، باب يزفون النسلان في المشى،(٤/ ١٤٤)، رقم الحديث ٣٣٦٥.

ومما ينبغي التنبه إليه أن الآيات القرآنية الخاصة بإسماعيل وصفته بالنبوة والرسالة معاً فهو نبي ورسول، واشترك مع والده في بناء البيت –كما مر – وإعداده مثابة للناس وأمناً، غير أن القرآن لم يشر إلى أي قوم كان مبعثه من العرب أو غيرهم ويبدو أن رسالته كانت إلى أهله.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[١]، وأهله هم الذين حطوا بجوار زمزم وتزوج منهم، ومما أشار إليه القرآن أنه كان من الصابرين قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

وعلى الرغم من أن دعوة إسماعيل كانت إلى ذلك الرهط الذي نزل بجوار زمزم وتزوج منهم، إلا إنه لقي منهم عنتاً ورهقاً استلزما أن يصفه القرآن بأنه كان من الصابرين، ويبدو أن قريشاً لم يكونوا بأحسن حالاً من سلفهم أصهار أبيهم إسماعيل.

ومما يحسن الالتفات إليه أن رسالة إسماعيل كانت لا تخرج عن ملة إبراهيم؛ لأن القرآن كثيراً ما كان يذكر العرب بأن الإسلام ملة إبراهيم حنيفاً هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ما يشير إلى أن ملة إبراهيم هي دعوة إسماعيل غير أنه أسند إليه أمر الدعوة في قومه العرب، فمنذ أن أقام إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت مثابة للناس وأمناً ودين التوحيد قائم معه لولا ما طرأ عليه من عوامل التغيير، وقد أصبحت رحلة إبراهيم تعني إقامة أهله حول البيت، ثم رفع قواعده وتأسيس دين التوحيد، ومن بقي من العرب على بقية من دين إسماعيل قبائل: «ربيعة ومضر»[٣].

٤– حكم الجراهمة ثم الخزاعيين لمكة.

لما توفي إسماعيل صارت ولاية البيت ومكة لذريته من بعده، وكثروا وانشروا في الحجاز وظلوا على دين إبراهيم وإسماعيل قروناً كثيرة، ولم يزالوا على ذلك حتى جاء عمرو بن لحي فابتدع الشرك، وغيَّر دين إبراهيم، أما حكم مكة والإشراف على البيت المحرم فغلب بني إسماعيل أخوالهُم من جرهم ومع ذلك لم ينازعهم؛ لقرابتهم وإعظامهم للحرمة حتى لا يقع قتال في الحرم ، ثم إن جرهم بغوا في مكة وظلموا من دخلها واستحلوا الكثير من الحرمات، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها، وظهر فيهم الفسق والفساد وارتكبوا الفواحش والمنكرات في جوف الكعبة، فضعف أمرهم وكان ذلك السبب المباشر في ضياعهم، وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً، ولا يبغي فيها أحد إلا أخرجته، فلما رأى بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة، وغُبشان من خزاعة ذلك الفجور من جرهم أجمعوا عليهم فغلبوهم ونفوهم[٤].

وكان الخزاعيون قد هاجروا من اليمن واستقروا في مكة إلى جوار الجراهمة، فلما رأوا ما حل بهم من فساد وضعف وانحلال، انتهزوا هذه الفرصة واستولوا على النفوذ والسلطان وظلوا سادة مكة زهاء مائتي سنة، ثم أدركهم داء الأمم وقلب الدهر لهم

---

(١) سورة مريم: الآيات ٥٤ ، ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٥.

(٣) الفيومي، مُحَمَّد إبراهيم (ت ١٤٢٧هـ): تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، ط٤، القاهرة، ١٤١٥هـ–١٩٩٤م، ص ٤٠٧، ٤٠٨.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١١٣– ١١٤).

ظهر المجن، واستطاع زعيم قرشي من بني إسماعيل أن يحاربهم وينتصر عليهم ويعيد نفوذ أجداده القديم وسلطانهم على هذه البلاد، وهذا الزعيم هو قصي بن كلاب، وهو الجد الرابع للرسول ﷺ[١].

٥- وصول قصي بن كلاب لمكة.

كان زواج قصي بن كلاب من ابنة حليل بن حبشية آخر ولاة خزاعة هو السبب المباشر في وصوله إلى حكم مكة، فقد عظم شرف بهذا الزواج وكثر ماله وبنوه، ثم هلك حليل، فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريشاً من آل إسماعيل، فكلم رجالاً من قريش وكنانة في إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فأجابوه وأعانوه ثم دانوا له فوليها وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملك عليهم وملكوه؛ لأنه أقر للعرب ما كانوا عليه، وكان أمره عندهم كالدين المتبع، واتخذ لنفسه دار الندوة[٢].

فلما كبر قصي ورق عظمه ولم يكن لابنه عبد الدار مكانة في قومه وهو البكر بينما أبناؤه عبد مناف، وعبد العزى قد شرفا في زمانه، قال قصي لعبد الدار: «لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك لا يدخل أحد منهم الكعبة حتى تفتحها له ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا في دارك».

فأعطاه دار الندوة، والحجابة، واللواء، والسقاية والرفادة، وهي مال فرضه قصي على قريش يصنع به طعاماً للحاج، بقوله: «إنكم جيران الله وأهل بيته وإن الحاج ضيف الله، وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم» ففعلوا، كان لا يخالف، فلما هلك أقام بنوه أمره، إلا أن بني عبد مناف رأوا أنهم أولى بما في يد عبد الدار وأرادوا أخذه، فتفرقت قريش بعضهم معهم، وبعضهم مع عبد الدار ثم تداعوا إلى الصلح، على أن لعبد مناف السقاية والرفادة، ولبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، فتوافقوا على ذلك وثبت كل فريق مع من حالفه، حتى جاء الله بالإسلام فقال ﷺ: «كل حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة»[٣].

حالة العرب قبل البعثة النبوية والحاجة إليها.

كانت الفوضى والاضطراب الصبغة العامة لحياة العرب في جاهليتهم من جميع النواحي الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والداخلية، والخارجية[٤].

١- الحالة الاقتصادية .

كان الفقر طابعاً عاماً لكل الجزيرة العربية قبل الإسلام إلا بقاعاً محدودة مثل مكة، بفضل ما سخر الله لهم من موسم الحج ورحلتي الشتاء والصيف، وكان المصدر الرئيسي للرزق عندهم الرعي والتجارة، وقد تمكنت قريش من عقد مجموعة من

---

(١) النجار، مُحَمَّد الطيب: القول المبين في سيرة الرسول سيد المرسلين، دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، ص ٤٨.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١١٧، ١١٨).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، (١٩٦١/٤)، رقم الحديث ٢٥٣٠.

(٤) ملكاوي، مُحَمَّد أحمد مُحَمَّد عبد القادر خليل: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، مكتبة دار الزمان، ط١، المدينة المنورة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٣٦.

التحالفات مع كنانة والأحابيش وغيرهما من القبائل المجاورة لمكة عرفت بالإيلاف، باتت هذه القبائل بموجبها تحرس القوافل المكية على خطوط التجارة إلى الشام والعراق واليمن، مقابل قدر معين من المال تدفعه لهم قريش، وأول من أوجد الإيلاف هو: هاشم بن عبد مناف الذي تمكن من الحصول على حق التجارة داخل أراضي الروم والفرس بالاتفاق مع حكامهم، وعقد المعاهدات معهم، فاتسعت تجارة مكة وكثرت أموالها (١).

وكان اقتصاد مكة يقوم أساساً على التجارة حتى إنها تكاد تكون الحرفة الوحيدة التي لم ينظر إليها وإلى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص، بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدراً ومنزلة، ونظر إلى التاجر نظرة تقدير.

أما الصناعة فكانت قليلة أبرزها صناعة الأسلحة من رماح وسيوف ودروع ونبال وسكاكين ثم صناعة الفخار والنجارة لصناعة الأَسِرَّة والأرائك، كما أن الموارد الاقتصادية الأخرى مثل تربية الماشية والصيد كانت معروفة، ولكن بقيت التجارة أساساً لا منازع له.

كما عرفت تجارة مكة الطرق البحرية إلى جانب الطرق البرية، لكنها لم تكن تملك أسطولاً تجارياً بل تستخدم السفن الحبشية في العبور إلى الحبشة وتحصل على البخور وريش النعام والعاج والجلود والتوابل والرقيق الأسود، وتحصل من الشام على القمح والدقيق والزيت والخمر، وتحصل من الهند على الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل كالبهار والفلفل ونحوها والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والميعة والزعفران والآنية الفضية والنحاسية والحديدية. وكانت تحمل حاصلات بلاد العرب من الزيت والبلح والصوف والوبر والشعر والجلود والسمن(٢).

٢– الحالة الاجتماعية.

أما حياة المجتمع العربي قبل الإسلام فكانت مليئة بالمآسي والظلم والفواحش، يأكلون الربا، ويشربون الخمر، ويمارسون القمار، وشاعت فيهم الغارات، وقطع الطرق على القوافل، والعصبية القبلية، ولا حق عندهم للضعيف كاليتيمات والرقيق[٣]، وكانت المرأة مهضومة الحقوق لا ميراث لها، وليس لها أي حق على زوجها، فهو يطلقها متى يشاء، ويتزوج من غيرها بلا حدود، تؤكل حقوقها، وتبتز أموالها، وتحرم إرثها، وتعضل بعد الطلاق، أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة؛ بل كان العرب يتشاءمون في الجاهلية من ولادة الأنثى حتى وصل الأمر ببعضهم إلى وأد البنات وهن أحياء خشية الفقر أو العار[٤].

---

(١) مُحَمَّد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ص ٤٤٢.

(٢) العمري، أكرم ضياء: السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ مُحاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَويَّةِ، مكتبة العلوم والحكم، ط٦، المدينة المنورة، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، (١/ ٧٧، ٧٨).

(٣) مُحَمَّد ملكاوي: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص ٣٦.

(٤) العازمي، موسى بن راشد: اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون "دراسة محققة للسيرة النبوية"، المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، ط١، الكويت، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١م، (٣٣/١).

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى قتل بعض الجاهليين أولادهم خشية الإملاق وخوف الفقر وفيهم نزل قول الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[١]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٣]، وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[٤]، وظاهر لفظ الآيات النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً مخافة الفقر والفاقة[٥].

بقيت المرأة هكذا مستضعفة مهضومة الحقوق، مكسورة الجناح، مسلوبة الإرادة حتى جاء الإسلام بشريعته الغراء ووضع الميزان الحق في إقراره لكرامتها، وإنسانيتها، وأعطاها مكانة عالية لتجد ممن حولها التقدير والاحترام اللائق بها كأم مربية للأجيال، وزوجة لها حقوق وعليها واجبات، وشابة يصان عرضها من عبث العابثين وأصحاب الشهوات، ومنحها حق الحياة، وحق الملكية والتصرف، وحق اختيار الزوج أو مفارقته، وحق التعلم، وجعلها صنو الرجل لها حقوق وعليها واجبات[٦]، قال الرسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[٧].

٣– الحالة الدينية.

كانت الكعبة مركزاً دينياً قديماً، عده المؤرخون أهم البيوت المقدسة، ووصفه القرآن بأنه أول بيت وضع للناس فيه آيات بيِّنَات، ويسند القرآن تجديد بنائه إلى إبراهيم وإسماعيل فيقول :﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٨]، ويقول :﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٩]، وليس في القرآن ما يدل على أن إبراهيم دعى سكان البلد الحرام أو من جاورهم إلى دعوته الحنيفية، وكل ما أشار إليه القرآن أن إبراهيم كُلِّف بإيداع إسماعيل وأمه في جوار البيت، ثم ببناء البيت هو وولده إسماعيل ويبدو أن اسم

---

(١) سورة الإسراء: آيه ٣١.

(٢) سورة الأنعام: آيه ١٣٧.

(٣) سورة الأنعام: آيه ١٤٠.

(٤) سورة الأنعام: آيه ١٥١.

(٥) جواد علي (ت ١٤٠٨هـ): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط ٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٩/ ٩٥).

(٦) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد (ت ٨٥٢هـ): معجم الشيخة مريم، ست القضاة مريم بنت عبد الرحمن بن أحمد الأذرعية (ت ٧٩٧ م)، تحقيق: مُحَمَّد عثمان، مكتبه الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠م، (ص ١٠– ١٢).

(٧) ابن حنبل، الإمام أحمد الشيباني(ت ٢٤١ هـ): المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، (٤٣/ ٢٦٥)، رقم الحديث، ٢٦١٩٥، وصححه الألباني، الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّد ناصر الدين (ت ١٤٢٠هـ): صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي، (١/ ٤٦١).

(٨) سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٩) سورة البقرة: آية ١٢٧.

مكة لم يكن معروفاً من قديم، يظهر ذلك من قول إبراهيم حكاية عنه في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾(٢)، وواضح من الآيات أن نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يدعها مكة وإنما دعاها: بواد غير ذي زرع مرة، وبلداً آمنا مرة أخرى، والبلد الأمين الثالثة، ثم يذكره الله -تبارك وتعالى -بمكان البيت في قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾(٣).

غير أن إسماعيل عليه السلام وهو نبي عاش بها على التوحيد وأبناؤه من بعده عدة قرون وأول من أدخل الأوثان في مكة هو عمرو بن لحي وكان في بداية أمره على خير كثير من المعروف والصدقة، والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس حباً عظيماً، ودانوا له لأجل ذلك حتى ملكوه عليهم، وظنوا أنه من أكابر العلماء، وأفاضل الأولياء، ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنَّها آلهة حقاً؛ لأن الشام مهبط الرسل والكتب فلهم الفضيلة بذلك على أهل الحجاز وغيرهم فرجع إلى مكة، ومعه صنم هبل جعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى عبادته فأجابوه، ثم تبعهم أهل الحجاز في دينهم ظناً أنه الحق؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم(٤).

وأما عن عبادة الحجارة في ولد إسماعيل فذكر البعض، أنهم كانوا إذا خرجوا من مكة يريدون السفر، حملوا معهم شيئاً من حجارة الحرم، فإذا نزلوا وضعوها وطافوا بها كطوافهم بالكعبة، ثم نسوا ما كان عليه أسلافهم، وصاروا يعبدون ما أعجبهم من الحجارة(٥)، ويقدمون لها النذور والقرابين، ويحرمون ويحللون كما يشاءون، وقد نسبوا إلى الله الولد فاعتقدوا أن الملائكة بنات الله، واستغربوا الدعوة لعبادة الله الواحد الأحد فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٦)، وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾(٨)، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٩)، والقرآن ينبه على عقائد العرب في معظم سوره(١٠).

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٣٥.

(٣) محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، (ص ٤٠٤- ٤٠٦). والآية الكريمة من سورة الحج: (آية: ٢٧).

(٤) محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، (١/٢٢، ٢٣).

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ٧٧).

(٦) سورة ص: آية ٥.

(٧) سورة الأنبياء: آية ٢٦- ٢٧.

(٨) سورة الإسراء: آية ٤٠.

(٩) سورة الصافات: آية ١٥١- ١٥٤.

(١٠) محمد ملكاوي: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص ٣٦.

ومع شركهم لكن بقيت فيهم بقية من دين إسماعيل كالنكاح والختان ومناسك الحج والعمرة وتعظيم الأشهر الحرم وتحريم نكاح المحارم ومعرفة حرمة البغاء والربا وغير ذلك من الأمور[١].

(١) مُحَمَّد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ص ٤٠٩.

الإرهاصات التي سبقت مولده ﷺ.

١ – قصة حفر عبد المطلب لزمزم وزواج عبد الله من آمنة بنت وهب.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فِيمَا يَزْعُمُونَ، نَذَرَ حِينَ لَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ مَا لَقِيَ عِنْدَ حَفْرِ زَمْزَمَ، لَئِنْ وُلِدَ لَهُ عَشَرَةُ نَفَرٍ ثُمَّ بلغُوا مَعَه حَتَّى يمنعوه لَيَذْبَحَن أَحَدَهُمْ لِلَّهِ عِنْدِ الْكَعْبَةِ فَلَمَّا تَكَامَلَ بَنُوهُ عَشَرَةً[١]،وَعَرَفَ أَنَّهُمْ سَيَمْنَعُونَهُ جَمَعَهُمْ وأَخْبَرَهُمْ بنذره ودعاهم إِلَى الْوَفَاء به فَأَطَاعُوهُ وَقَالُوا: كَيْفَ نَصْنَعُ؟

قَالَ: لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ قِدْحًا ثُمَّ يَكْتُبُ فِيهِ اسْمَهُ ثُمَّ ائْتُونِي فَفَعَلُوا ثُمَّ أَتَوْهُ، فَدَخَلَ بهم على هُبل فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وعنده قِدَاحٌ سَبْعَةٌ، وَهِيَ الْأَزْلَامُ الَّتِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا جَاءَ يَسْتَقْسِمُ بِالْقِدَاحِ خَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ وَكَانَ أَصْغَرَ وَلَدِهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ بِيَدِه وَأَخَذَ الشَّفْرَةَ لِيَذْبَحَهُ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ أَنْدِيَتِهَا وقَالُوا: مَا تُرِيدُ يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ؟

قَالَ أَذْبَحُهُ، فَقَالَتْ: قُرَيْش وَاللَّهِ لَا تَذْبَحُهُ أَبَدًا حَتَّى تُعْذِرَ فِيهِ، لَئِن فعلت هَذَا لَا يزَال الرجل يجِئ بِابْنِهِ حَتَّى يَذْبَحَهُ، فَمَا بَقَاءُ النَّاسِ عَلَى هَذَا؟ ! ثُمَّ أَشَارَوا عَلَيه أَنْ يَذْهَبَ إِلَى عَرَّافَةٍ، فَيَسْأَلُهَا عَنْ ذَلِكَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوُا الْعَرَّافَةَ فَسَأَلُوهَا وَقَصَّ عَلَيْهَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ خَبَرَهُ وَخَبَرَ ابْنِهِ، فَقَالَتْ لَهُمْ: كَمِ الدِّيَةُ فِيكُمْ؟

قَالُوا: عَشْراً مِنَ الْإِبِلِ، وَكَانَتْ كَذَلِكَ، قَالَتْ: فَارْجِعُوا إِلَى بِلَادِكُمْ ثُمَّ قَرِّبُوا صَاحِبَكُمْ وَقَرِّبُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، ثُمَّ اضْرِبُوا عَلَيْهَا وَعَلَيْهِ بِالْقِدَاحِ فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَى صَاحِبِكُمْ فَزِيدُوا مِنَ الْإِبِلِ حَتَّى يَرْضَى رَبُّكُمْ، وَإِنْ خَرَجَتْ عَلَى الْإِبِلِ فَانْحَرُوهَا عَنْهُ فَقَدْ رَضِيَ رَبُّكُمْ وَنَجَا صَاحِبُكُمْ، فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ قَرَّبُوا عَبْدَ اللَّهِ وَعَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَزَادُوا عَشْرًا ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَلم يزَالُوا يزِيدُونَ حتى بلغت الْإِبِلِ مائةً، ثم ضربوا فخرج القدح على الْإِبِلِ فنحرها عبد المطلب، فكان النبي ﷺ يقول «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»[٢]، إذ لا خلاف أنه من ولد إسماعيل وأن الذبيح الآخر أبوه الأدنى عبد الله بن عبد المطلب»[٣].

---

(١) وهُمُ: الْحَارِثُ، وَالزُّبَيْرُ، وَحَجْلٌ، وَضِرَارٌ، وَالْمُقَوَّمُ، وَأَبُو لَهَبٍ، وَالْعَبَّاسُ، وَحَمْزَةُ، وَأَبُو طَالِبٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وقيل أن حمزة لم يكن ولد بعد.

(٢) الحاكم النيسابوري(ت: ٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين،(٢/ ٦٠٩)، رقم الحديث ٤٠٤٨.

(٣) والقصة المشار إليها مذكورة في كتب السير، والتواريخ، والحديث، بألفاظ مختلفة متقاربة. وذكرها ابن هشام، وابن إسحاق في سيرتيهما، وابن سعد في الطبقات، وغيرهم، ولم أقف لها على سند صحيح، ولا أعلم أحدًا من أهل العلم حكم بصحتها، وممن رواها الحاكم في المستدرك بإسناد ضعيف، قال عنه الإمام الذهبي: واهٍ، وقال عنه ابن كثير: وهذا حديث غريب جداً، وضعفه الألباني وقال: لا أصل له بهذا اللفظ. الحاكم: المستدرك، (٢/ ٦٠٩)، رقم الحديث ٤٠٤٨؛ ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مُحَمَّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ١، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، بيروت، ١٤١٩هـ، (٣٥/٧)؛ الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين (ت ١٤٢٠ هـ): سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية،١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، (١/ ٥٠٠).

٢- زواج عبد الله من آمنة بنت وهب.

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، وقد صح النقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن عبد المطلب قد نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرة أقرع بينهم أيهم ينحر فطارت القرعة على عبد الله وكان أحب الناس إليه فقال اللهم هو أو مائة من الإبل فأقرع فطارت القرعة على الإبل»(١).

ولا شك أن فرحة عبد المطلب بنجاة ابنه عبد الله كانت عظيمة، خاصة أنه كان معروفًا بالأخلاق الطيبة والعفة، فزوَّجه من آمنة بنت وهب، قَالَ ابن إسحاق: «فَخَرَجَ بِهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَتَّى أَتَى بِهِ وَهْبَ بْنَ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ ابْن مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارَ بْنِ مَعَدَّ بْنِ عَدْنَانَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ بَنِي زُهْرَةَ نَسَبًا وَشَرَفًا، فَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ أَفْضَلُ امْرَأَةٍ فِي قُرَيْشٍ نَسَبًا وَمَوْضِعًا»(٢).

كيف لا وقد اختارها الله عز وجل من بين نساء العالمين لتكون أحشاؤها القرار المكين لأطوار النشأة الأولى للنبي ﷺ قبل أن يولد وتكون أول من يتلقاه فحجرها أول حجر احتضنه ولبنها أول طعام طعمه وحبها أول حنان تذوقه وجسدها أول جسد مس جسده، وقد تلقت البشرى به قبل مولده ﷺ (٣)، عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ قال: «إِنِّي عندَ اللهِ مكتوبٌ خاتمُ النَّبيِّيْنَ، وإنَّ آدمَ لمنجَدلٌ في طينتِه، وسأخبرُكم بأوَّلِ أمري: دَعوةُ إبراهيمَ، وبِشارةُ عيسَى، ورؤيا أمِّي الَّتي رأَت - حين وضعَتني - وقد خرج لها نورٌ أضاءَت لها منه قصورُ الشَّامِ»(٤).

(١) عبد الواحد، صالح طه: سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، راجعهُ وقدَّم لهُ: سليم بن عيد الهلالي، مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة الغرباء، الدار الأثرية، ط٢، ١٤٢٨هـ، (١/ ٣١).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٥٦).

(٣) الطريري، عبد الوهاب بن ناصر بن عبد الله: الحياة النبوية، حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه، مطبوعات مبرة الآل والأصحاب بالتعاون مع مركز مداد للبحوث والدراسات، ط ١، مكتبة الكويت الوطنية، ١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م، (١/ ٥٧).

(٤) أحمد بن حنبل ٢٤١هـ: المسند، (٢٩/ ١٩٦)، رقم الحديث: ١٧٦٤٩، صححه الألباني في الجامع الصغير،(١/ ٦٤٩).

٣– حادثة الفيل.

بنى أبرهة الأشرم كنيسة باليمن وجعل عليها قباباً من ذهب، وأمر أهل مملكته بالحج إليها، يضاهي بذلك البيت الحرام ويريد أن يصرف العرب عنه إليها، عن ابن إسحاق قال: «وإن رجلاً من بني ملكان بن كنانة، خرج حتى قدم أرض اليمن، فدخلها، فنظر إليها، ثم قعد فأحدث فيها؛ فلما دخلها أبرهة، وجد تلك العَذِرَة فيها، فقال: من اجترأ علي بهذا؟ فقال له أصحابه: هذا رجل من أهل ذلك البيت الذي يحجه العرب، قال: فعلي اجترأ بهذا، ونصرانيتي، لأهدمَنَّ ذلك البيت ولأخربنَّه حتى لا يحجه حاج أبداً، فدعا بالفيل، وأذن في قومه بالخروج، ومن تبعه من أهل اليمن، فخرجوا حتى إذا كان ببعض طريقه، بعث رجلاً من بني سليم، ليدعو الناس إلى حج بيته الذي بناه، فتلقاه أيضا رجل من بني كنانة، فقتله، فازداد أبرهة بذلك حنقاً، وأحث السير والانطلاق، حتى إذا أشرف على الطائف، خرجت إليه ثقيف، فقالوا :أيها الملك، إنما نحن عبيدك، وليست ربَّتُنا هذه بالتي تريد– يعنون اللات، صنمهم، وليست بالتي تحج إليها العرب، وإنما ذلك بيت قريش، الذي تحج إليه العرب، قال : فأعطوني دليلاً يدلني عليه، فبعثوا معه رجلاً من هذيل، يقال له نُفيل يهديهم، حتى إذا كانوا على ستة أميال من مكة نزلوا، وأرسلوا يحذرون أهلها، فخرج الناس في رؤوس الجبال، وقالوا :لا طاقة لنا بقتال هؤلاء القوم، ولم يبق بها أحد إلا عبد المطلب بن هاشم، أقام على سقايته؛ وشيبة بن عثمان بن عبد الدار، أقام على حجابة البيت، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب، ويقول:

لَاهُمَّ إِنَّ المَرْءَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فَامنَعْ رِحَالَك

لَا يَغلِبَنَّ صَلِيبُهُم ... وَمِحَالُهُم غَدْوَا مِحَالَك

أن يدخلوا البلد الحرام ... غدا فأمر ما بدا لك

ثم إن مقدمة جيش أبرهة، أصابت نعماً لقريش فيها مائتي بعير لعبد المطلب، فلما بلغه ذلك خرج حتى انتهى إلى القوم، وكان حاجب أبرهة رجلاً من العرب له معرفة سابقة بعبد المطلب، فلما وصل إليه، قال ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن تستأذن لي على الملك، فدخل عليه حاجبه، فقال له: أيها الملك، جاءك سيد قريش الذي يطعم أنيسها في السهل، ووحوشها في الجبل، فقال: ائذن له، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً جميلاً، فأذن له، فدخل عليه، فلما أن رآه أبرهة أعظمه أن يجلسه تحته، وكره أن يجلسه معه على سريره، فنزل من سريره، فجلس على الأرض، وأجلس عبد المطلب معه، ثم قال: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي مائتا بعير، أصابتها مقدمتك، فقال أبرهة: والله لقد رأيتك فأعجبتني، ثم تكلمت، فزهدت فيك، فقال له: ولم أيها الملك؟ قال: لأني جئت إلى بيت هو منعتكم من العرب، وفضلكم في الناس، وشرفكم عليهم، ودينكم الذي تعبدون، فجئته لأكسره، وأصيبت لك مائتا بعير، فسألتك عن حاجتك، فكلمتني في إبلك، ولم تطلب إلي في بيتكم! فقال له عبد المطلب: أيها الملك، إنما أكلمك في مالي، ولهذا البيت رب هو يمنعه، لست أنا منه في شيء، فراع ذلك أبرهة، وأمر برد إبل عبد المطلب عليه، ورجع عبد المطلب.

وأمسوا ليلتهم تلك وكانت ليلة كالحة، نجومها كأنما تكلمهم كلاماً؛ لاقترابها منهم، وأحست أنفسهم بالعذاب، وخرج دليلهم حتى دخل الحرم وتركهم، وقام اليمنيون، فكسروا رماحهم وسيوفهم، وبرئوا إلى الله تعالى أن يعينوا على هدم البيت،

فباتوا كذلك بأخبث ليلة، ثم أدلجوا بسحر، فبعثوا فيلهم يريدون أن يصبحوا مكة، فلما وجهوه إليها ربض، فضربوه فتمرغ، فلم يزالوا كذلك حتى كادوا يصبحون، فلما وجهوه إلى اليمن نهض راجعاً يهرول، فعطفوه إلى مكة فربض وتمرغ، فلم يزالوا كذلك، حتى طلوع الشمس، فطلعت عليهم طير سود من البحر أمثال الخطاطيف، فجعلت ترميهم وكل طائر في منقاره حجر، وفي رجليه حجران، أمثال الحمص أو العدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، لكنها ما وقعت على بطن إلا خرقته، ولا عظم إلا أوهته ونقبته.

وثار أبرهة راجعاً، قد أصابته بعض الحجارة، فجعل كلما قدم أرضاً انقطع منه فيها أرب، حتى إذا انتهى إلى اليمن، ولم يبق منه شيء إلا أباده، فلما قدمها انصدع صدره، وانشق بطنه، فهلك، ولم يصب من اليمنيين الذين لم يشاركوا في الهجوم أحد»[١] .

وقد سجل القرآن هذه الحادثة في سورة الفيل، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[٢].

فلما ردَّ الله الحبشة عن مكة، وأصابهم بما أصابهم به من النقمة، أعظمت العرب قريشاً، وقالوا: «هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم»[٣].

وكذلك عَظُمَ فِيهِمْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، روى عبد الرزاق، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ :إِنَّ أَوَّلَ مَا ذُكِرَ مِنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَدِّ رَسَولِ اللهِ ﷺ، أَنَّ قُرَيْشًا خَرَجَتْ مِنَ الْحَرَمِ فَارَّةً مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، وَهُوَ غلَامٌ شَابٌّ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَخرُجُ مِن حَرَمِ اللَّهِ أَبْتَغِي الْعِزَّ فِي غَيْرِهِ، فَجَلَسَ عِنْدَ البَيْتِ، وَأَجْلَتْ عَنْهُ قُرَيْشٌ، فَلَمْ يَزَلْ ثَابِتًا حَتَّى أَهْلَكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْفِيلَ وَأَصْحَابَهُ، فَرَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَقَدْ عَظُمَ فِيهِمْ بِصَبْرِهِ، وَتَعْظِيمِهِ مَحَارِمَ اللَّهِ[٤].

---

(١) ابن إسحاق، مُحَمَّد بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (ت ١٥١هـ): سيرة ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م، (ص ٦١-٦٤).

(٢) سورة الفيل: الآيات ١ — ٥.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ٥٧).

(٤) الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام (ت: ٢١١هـ)، المصنف، تحقيق ودراسة: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، ط٢، بيروت، ١٤٣٧هـ / ٢٠١٣م، (٦/ ٥)، رقم الحديث ١٠٥٥٣.

ولادته ﷺ ونسبه الكريم.

١ – اليوم والشهر والعام الذي ولد فيه ﷺ.

ولد رسول الله ﷺ في مكة المشرفة عام الفيل[١]، يوم الاثنين حِين طلع الْفجْر وذلك باتفاق عَنْ أبي قتادة أن أعرابياً قال: يا رسول اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِي صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ فَقَالَ: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَأُنْزِلَ عَلَيَّ فيه»[٢].

أما تاريخ المولد فهناك اختلافات في اليوم والشهر والسنة يمكن أن نجمله على النحو التالي: فأما **تحديد اليوم من أيام الشهر** فقيل: الثاني، أو الثامن، أو التاسع، وقيل الثاني عشر وذكر ابن كثير أنه العاشر[٣]، وأما **تعيين الشهر** فقيل: المحرم، أو صفر، أو ربيع الأول، وقال الزبير بن بكار: «ولد في رمضان»، وهو قول شاذ[٤]، واختلفوا أيضاً فيما يوافق **عام الفيل** بالتاريخ الميلادي فمنهم من قال٥٢٢م أو ٥٦١م أو ٥٧٠م وقيل ٥٧١م .

والمشهور ما نقله ابن هشام عن شيخه ابن اسحاق من أن مولده ﷺ «كان فِي يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوّلِ عَام الْفِيلِ»، قبل البعثة بأربعين سنة، وقبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة، الموافق ٢٢ أغسطس٥٧١م بعد وفاة والده بشهرين[٥].

يلاحظ مما سبق أن الاتفاق انعقد على أن مولده ﷺ كان في يوم الاثنين بينما حدث خلاف في تحديد تاريخ اليوم والشهر والسنة ولعل السبب في ذلك أن السُّنَّة النبويَّة أكدت اليوم بينما نشب الخلاف بسبب روايات المؤرخين.

---

(١) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص ٦١– ٦٤)، ذكر البيهقي عن إبراهيم بن المنذر أنه قال: لا يشك أحد من علمائنا: أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل، وبُعث على رأس أربعين سنة. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر (ت ٤٥٨هـ): دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م، (١/ ٧٩).

(٢) أحمد بن حنبل ٢٤١هـ: المسند، (٣٧/ ٢٢٤)، رقم الحديث: ٢٢٥٣٧.

(٣) ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ): الفصول في السيرة، تحقيق: مُحَمَّد الخطراوي، محيي الدين مستو، مؤسسة علوم القرآن، ط ٣ ، ١٤٠٣هـ ،(ص: ٩١)، الحلبي، الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب، أبو مُحَمَّد، بدر الدين (ت ٧٧٩هـ): المقتفى من سيرة المصطفى، تحقيق: مصطفى مُحَمَّد حسين الذهبي، دار الحديث، ط١، القاهرة، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، (ص: ٣٠).

(٤) ابن كثير: الفصول في السيرة، (ص: ٩١).

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٥٨)؛ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت: ٥٨١هـ): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر السلامي، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، (٢/ ٩٣).

٢- نسبه ﷺ .

ولا خلاف في نسبه ﷺ، وأنه أشرف أنساب العرب قاطبة(١)، روى البخاري تعليقاً أنه: «مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الْمطلب بن هَاشم بن عبد منَاف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كَعْب بن لؤَي بن غَالب بن فهر بن مَالك ابن النَّضر بن كنَانَة بن خُزَيْمَة ابْن مدركة بن إلْيَاس بن مُضر بن نزار بن معد بن عدنان»(٢)، وَأما من عدنان إِلَى آدم فقد اضطربت كلمة النسابين، حتى نراهم لا يكادون يجمعون على جد حتى يختلفوا فيمن فوقه، يقول ابن القيم: «إِلَى هَا هُنَا مَعْلُومُ الصِّحَّةِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّسَّابِينَ، وَلَا خِلَافَ فِيهِ الْبَتَّةَ، وَمَا فَوْقَ عدنان مُخْتَلَفٌ فِيهِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ عدنان مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»(٣)، وقال البغوي: «وَلَا يَصح حفظ النّسَب فَوق عدنان»(٤).

والواضح أن النبي ﷺ ولد في أشرف نسب على الإطلاق وأحسنه من نكاح مشروع وليس في أجداده من تلوث بسفاح الجاهلية، بل طَهَّر الله أصوله تطهيراً وانتقى نسبه واصطفاه اصطفاءً، وكذلك كل الأنبياء يكونون في أشرف قومهم نسباً ومكانة، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٥)، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:« بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ»(٦)، وقد روي من طرق مرسلاً وموصولاً: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء»(٧).

فكما اختار الله تعالى نبيه ﷺ من خير القرون، وأزكى القبائل، وأفضل البطون. جعله أوسط قومه نسباً، وأعظمهم شرفاً(٨).

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته ﷺ «كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَه عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. فَقَالَ هرقل لِلتَّرْجُمَانِ :قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا»(١)؛ يعني في أكرمهم أحساباً وأكثرهم قبيلةً صلوات الله عليهم(٢).

---

(١) والسبب أن العرب كانت تحفظ أنسابها لا سيما أنه أشرف قومه نسباً، كما أن نسبه ﷺ جاء من طريق السنة النبوية الصحيحة.

(٢) البخاري: الصحيح، باب مبعث النبي ﷺ ،(٥/ ٤٤)، رقم الحديث ٣٨٥٠.

(٣) ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت ٧٥١هـ): زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، مكتبة المنار الإسلامية، ط ٢٧، الكويت، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م، (١/ ٧٠).

(٤) البغوي، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد بن الفراء (ت ٥١٦هـ): شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-مُحَمَّد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، دمشق- بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، (١٣/ ١٩٣).

(٥) سورة الأنعام: آية ١٢٤.

(٦) البخاري: الصحيح، باب صفة النبي ﷺ (٤/ ١٨٩)، رقم الحديث ٣٥٥٧.

(٧) ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ): صحيح السيرة النبوية من البداية والنهاية، لخّصه مُقتصِراً على ما صح وعَلّق عليه: مُحَمَّد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠ هـ)، المكتبة الإسلامية، ط١، عمان، الأردن، (د-ت)، (ص ١٠).

(٨) موسى العازمي: اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون، (١/٤٤).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي كِنَانَةَ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(٣).

فما زالت النطفة النبوية الشريفة تتقلب من الأصلاب الطاهرة عبر الأرحام الزكية من لدن إبراهيم حتى والده.

والحكمة في كون النبي ﷺ من أرقى قومه نسباً: أن العرب لا تسمع إلا لذوي الأنساب العالية فيهم، نقل الحلبي عن الماوردي قوله: «وإذا اختبرت حال نسبه ﷺ وعرفت طهارة مولده علمت أنه سلالة آباء كرام ليس فيهم مسترذل، بل كلهم سادة وقادة، وشرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة»(٤).

و**ميلاد النبي ﷺ يتيماً** يدل أن هناك حكمه لذلك أيضاً، فقد شاء الله أن ينشأ نبيه ﷺ يتيماً بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجده، ولعل ذلك ألا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب أو إيهام الناس بأن مُحَمَّداً ﷺ إنما رضع لبان دعوته ورسالته منذ صباه بإرشادٍ وتوجيهٍ من أبيه وأمه وجده ليصل إلى جاه الدنيا باصطناع النبوة فقد كان لجده مكانه مرموقة سيد مكة، إليه الرفادة والسقاية أي طعام الحجاج وشرابهم، وليعلم الجميع أنما هو نبي باصطفاء من الله.

نقل القرطبي عن جعفر الصادق عندما سئل عن يتم النبي ﷺ من أبويه؟ فقال: «لئلا يكون لمخلوق عليه حق»(٥)، ولعل في يتمه أسوة للأيتام في كل زمان ومكان ليعرفوا أن اليتم ليس نقمه وإنه يجب ألا يقعد بصاحبه عن بلوغ أسمى المراتب وليعلم النبي ﷺ رعاية الله له.

واختلف المؤرخون أيضاً في مسألة **ختانه** ﷺ حيث ذكر البعض أنّه ولد مختوناً؛ أو ختنه جبريل عليه السلام وقد علّق ابن القيّم – رحمه الله– على ما ورد في ذلك من الأحاديث وحَكم عليها بالضعف(٦).

والمقبول أن جده هو الذي قام بذلك في يوم سابعه وأعد له مأدبة وسماه مُحَمَّداً، قال الحافظ الذهبي: «وهذا أصح مما رواه ابن سعد: أنه ولد مختوناً مسروراً»(٧).

---

(١) البخاري: الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله، (١/ ٨)، رقم الحديث ٧.

(٢) ابن كثير الدمشقي: صحيح السيرة النبوية، (ص ٩).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، (١/ ١٧٨٢)، رقم الحديث ٢٢٧٦.

(٤) علي بن إبراهيم الحلبي (ت ١٠٤٤هـ): إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، (١/ ٤٣).

(٥) القرطبي، أبو عبد الله، مُحَمَّد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، (٢٠/ ٦٩).

(٦) ابن القيم: زاد المعاد، (١/ ٦٥– ٦٧).

(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، (١/ ٣٦).

٣- رضاعه ﷺ في بني سعد وحادثة شق صدره.

كان الأغنياء والأشراف من نساء قريش لا يرضعن صغارهن؛ بل كن يرسلن الأطفال إلى البوادي للإرضاع هناك، ولعل إرجاع ذلك يعود لأسباب منها:

- أن مكة ذات الطبيعة المناخية القاسية كانت مكاناً لاجتماع الناس وتكدسهم سواء للتجارة أو الحج أو العمرة.. إلخ مما جعلها بيئة مناسبة لانتشار الأمراض والأوبئة في ذلك الزمن، بخلاف البادية ذات الهواء النقي والمناخ الطبيعي بما يناسب الأطفال في السن المبكرة فلا يمرضون وتقوى أجسادهم بإذن الله.
- حياة الطفل في البادية بعيداً عن أمه تعوده الاعتماد على النفس منذ الصغر واكتساب الأخلاق الحميدة مثل الكرم والشهامة والشجاعة الصبر الجلد . الخ
- لكي يتعلموا اللغة العربية صافية المنبع خالية من الدخيل الذي يعكر صفوها ويفسد نقائها.

وكانت القبائل متفاوتة والبوادي متباينة غير أن أفضل القبائل التي اشتهرت بالرضاعة والتربية قبيلة بني سعد بن بكر بن هوازن التي استرضع فيها رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ ابْنُ عَمِّهِ أَبَو سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ([1])، وعمُّه الحمزة بن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وكانت باديتهم أنقى البوادي وأخلاقهم أطيب الأخلاق ولسانهم أقوم ألسنة العرب([2]).

وكان الإرضاع مصدر دخل بالنسبة لهذه القبيلة خاصة في سِنِي القحط والجدب فيتسابق المرضعات للحصول على أبناء كبار القوم من مكة الذين يجزلون لهم العطاء.

واشتهر عند أهل السيرة أنَّ ظئر النبي ﷺ التي أرضعته هي حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، روي عنها: «أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهَا مَعَ زَوْجِهَا، وَابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ تُرْضِعُهُ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، تَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، قَالَتْ: وَذَلِكَ فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ([3])، فَخَرَجَتْ عَلَى أَتَانٍ لِي قَمْرَاءَ([4]) مَعَنَا شَارِفٌ لَنَا([5]) وَالله مَا تبض بِقَطْرَةٍ، وَمَا نَنَامُ لَيْلَنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِيِّنَا الَّذِي مَعَنَا، مِنْ بُكَائِهِ مِنْ الْجُوْعِ، مَا فِي ثَدْيَيَّ مَا يُغْنِيهِ، وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يُغَذِّيهِ وَلَكِنَّا كُنَّا نَرْجُو الْغَيْثَ وَالْفَرَجَ فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَانِي تِلْكَ فَلَقَدْ أَذَمَّتْ بِالرَّكْبِ([6]) حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ضَعْفًا وَعَجَفًا، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، فَمَا مِنَّا امْرَأَةٌ إِلَّا وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَأْبَاهُ، إِذَا قِيلَ لَهَا إِنَّهُ يَتِيمٌ، وَذَلِكَ أَنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فَكُنَّا نَقُولُ: يَتِيمٌ! وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ! فَكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ، فَمَا بَقِيَتْ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي، فَلَمَّا

---

(١) كان شديد العداوة لرسول اللَّهِ ﷺ في بداية الدعوة، لكنه أسلم عام الفتح وَحَسُنَ إسلامه.

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، (١/ ٨١).

(٣) أَي ذاتِ قَحْطٍ وجَدْبٍ .والشَّهْباءُ :الأَرضُ البيضاءُ الَّتِي لَا خُضْرة فِيهَا لقِلَّة المطَر، مِنَ الشُّهْبَة، وَهِيَ البياضُ. ابن منظور: لسان العرب، (٥٠٩/١).

(٤) الأتان: أنثى الحمار خَاصَّةً بينما الحمارُ يَقَعُ عَلَى الذَّكَرِ والأُنثى، والقَمْرَاءُ هي البَيْضَاء شَّدِيدةُ الْبَيَاضِ. ابن منظور: لسان العرب، (٥/ ١١٣، ٦/١٣).

(٥) أي ناقة مُسِنَّة مُتَكَسِّرَةُ الأَسنان لِكِبَرِهَا. ابن منظور: لسان العرب، (١٠٣/١٠).

(٦) أي أبطأت بالركب وحَبَسَتْهُمْ لِضَعْفِهَا وَانْقِطَاعِ سَيْرِهَا، فشق عليهم التأخر. ابن منظور: لسان العرب، (٢٢١/١٢).

أَجْمَعْنَا الِانْطِلَاقَ قُلْتُ لِصَاحِبِي: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاللَّهِ لَأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ فَلَآخُذَنَّهُ، قَالَ: لَا عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً، قَالَتْ : فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَأَخَذْتُهُ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ. قَالَتْ: فَلَمَّا أَخَذْتُهُ، ورَجَعْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي وَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي فأَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبَ حَتَّى رَوِيَ، وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّى رَوِيَ، ثُمَّ نَامَا، وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا تِلْكَ، فَإِذَا إِنَّهَا لَحَافِلٌ، فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِبَ، وَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا رِيًّا وَشِبَعًا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ. قَالَتْ: يَقُولُ صَاحِبِي حِينَ أَصْبَحْنَا: تَعَلَّمِي وَاللَّهِ يَا حَلِيمَةُ، لَقَدْ أَخَذْتُ نَسَمَةً مُبَارَكَةً، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنَا وَرَكِبْتُ (أَنَا) أَتَانِي، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا معي، فو الله لَقَطَعَتْ بِالرَّكْبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهِمْ، حَتَّى إِنَّ صَوَاحِبِي لِيَقُلْنَ لي: يَا ابنة أَبِي ذُؤَيْبٍ، وَيْحَكِ! ارْبَعِي عَلَيْنَا(١)، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَكِ الَّتِي كُنْتِ خَرَجْتِ عَلَيْهَا؟ فَأَقُولُ لَهُنَّ: بَلَى وَاللَّهِ، إِنَّهَا لَهِيَ هِيَ، فَيَقُلْنَ: وَاللَّهِ إِنَّ لَهَا لَشَأْنًا. قَالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلَادِ بَنِي سَعْدٍ وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللَّهِ أَجْدَبَ مِنْهَا، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَّنًا، فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ، وَمَا يَحْلُبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، وَلَا يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ، حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُمْ اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ، فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبَّنًا. فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنَ اللَّهِ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ، وَكَانَ يَشِبُّ شَبَابًا لَا يَشِبُّهُ الْغِلْمَانُ، فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّى كَانَ غُلَامًا جَفْرًا(٢)، قَالَتْ: فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَى مُكْثِهِ فِينَا، لِمَا كُنَّا نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ، فَكَلَّمْنَا أُمَّهُ وَقُلْتُ لَهَا: لَوْ تَرَكْتِ بُنَيَّ عِنْدِي حَتَّى يَغْلُظَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبَاءَ مَكَّةَ، قَالَتْ: فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتَّى رَدَّتْهُ مَعَنَا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة(٣).

---

(١) أربعي: تمهلي وانتظري، يُقَالُ: أَرْبَعْ عَلَى نَفْسِكَ أَيْ انتظِرْ. قِوَام السنة الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن مُحَمَّد التيمي الشافعي (ت ٥٣٥ هـ): شرح صحيح البخاري، تحقيق: د عبد الرحيم بن مُحَمَّد العزاوي، دار أسفار، ط١، الكويت، ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م، (٥/ ٤١٣).

(٢) جفراً: قوياً شديداً غليظ الجسم جلداً بعد أن استغني بالطعام عن الرضاع، وأصل الجَفْرَةُ: العَنَاقُ الَّتِي شَبِعَتْ من البَقْل والشَّجَر، واسْتَغْنَتْ عَن أُمِّها. الزَّبيدي، محمّد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، (١٠/ ٤٤٨).

(٣) أورده ابن حبان بطوله في الصحيح. ابن حبان، أبو حاتم مُحَمَّد بن أحمد التميمي البُستي (ت ٣٥٤ هـ): المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها، تحقيق : مُحَمَّد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم ، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م، (٤/ ٣٨)، رقم الحديث ٣٠١١؛ ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص ص: ٤٩، ٥٠)؛ ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٦٤)، ابن كثير: السيرة النبوية، (١/ ٢٢٧)، الصالحي الشامي، مُحَمَّد بن يوسف (ت ٩٤٢هـ): سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، (١/ ٣٨٧).

معجزة شق صدره ﷺ.

١– تعريف المعجزة: هي حادثة خارقة للطبيعة يقصد بها التحدي أو مقرون بها التحدي يعجز البشر عن فعلها وحدهم يؤيد الله بها أنبيائه تأكيداً لنبوتهم وتصديقاً لرسالتهم منحةً من الله ونصرةً لهم(١)، والمعجزات تكون بطلب وبغير طلب، والتي تكون بطلب إن لم يؤمن بها القوم أنزل الله عليهم عذاباً شديداً مثلما حدث عندما طلب بنو إسرائيل من المسيح عيسى عليه السلام أن يدعو الله بإنزال المائدة عليهم، ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

وتكون المعجزة لكل قوم بما يجيدونه، فقريش يتقنون العربية ويتفاخرون بها فأتاهم القرآن متحدياً لهم أن يأتوا بآية مثله فلم يستطيعوا، وقوم عيسى عليه السلام برعوا بالطب فكان عيسى يبرأ الأكمه والأبرص والأعمى ويحي الموتى بإذن الله، وموسى عليه السلام قومه كانوا سحرة مهرة فآتى السحرة بسحرهم فلما عرفوا بأنَّ ما لديه ليس سحراً سجدوا له أجمعين وتأتى الخوارق للصالحين وتسمى كرامات مثل نداء عمر رضي الله عنه قائده سارية وهو في المدينة المنورة: «يا سارية الجبل»(٣) فأوصل الله صوته على مسيرة شهر ونصر الله سارية ومن معه بفضل الله ثم بكرامة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وأما معجزة شق الصدر فحدثت مرتين الأولى في بني سعد في مرحلة الطفولة والأخرى قبل الإسراء والمعراج في السنة العاشرة من النبوة وهو ابن خمسين سنة تقريباً.

٢– شَقُّ الصدر الأول.

نقل أهل المغازي والسير عن حليمة بنت أبي ذؤيب وهو عبد الله بن الحارث بن سعد السعدية قولها: «فَبَيْنَمَا هُوَ خَلْفَ بُيُوتِنَا مَعَ أَخٍ لَهُ مِنَ الرضَاعَة فِي بَهم لنا جَاءَ أَخُوهُ ذَلِكَ يَشْتَدُّ، فَقَالَ: ذَاكَ أَخِي الْقُرَشِيُّ جَاءَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَاهُ فَشَقَّا بَطْنه، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوهُ نَشْتَدُّ نَحْوَهُ، فَنَجِدُهُ قَائِمًا مُنْتَقِعًا لَوْنُهُ، فَاعْتَنَقَهُ أَبُوهُ وَقَالَ: يَا بُنَيَّ مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانَ علَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، أَضْجَعَانِي وَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا مِنْهُ شَيْئًا فَطَرَحَاهُ ثُمَّ رَدَّاهُ كَمَا كَانَ، فَرَجَعْنَا بِهِ معنا، فقال أَبُوهُ: يَا حَلِيمَةُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ ابْنِي قَدْ أُصِيبَ، فَانْطَلِقِي بِنَا، فَلْنَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ فِيهِ مَا نَتَخَوَّفُ، قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَاحْتَمَلْنَاهُ، فَلَمْ تُرَعْ أُمُّهُ إِلَّا بِهِ قَدْ قَدِمْنَا بِهِ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: مَا رَدَّكُمَا بِهِ؟ فَقَدْ كُنْتُمَا عَلَيْهِ حَرِيصَيْنِ، فَقُلْنَا لَهَا: لَا وَاللهِ يَا ظِئْرُ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى، قَدْ أَدَّى عَنَّا، وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا، فَقُلْنَا نَخْشَى الْإِتْلَافَ وَالْأَحْدَاثَ نَرُدُّهُ عَلَى أَهْلِهِ، قَالَتْ: مَا ذَاكَ بِكُمَا، فَاصْدُقَانِيَ شَأْنَكُمَا، فَلَمْ تَدَعْنَا حَتَّى أَخْبَرْنَاهَا خَبَرَهُ. قَالَتْ: أَخَشِيتُمَا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ؟ كَلَّا، وَاللهِ مَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، وَإِنَّهُ لَكَائِنٌ لِابْنِي هَذَا شَأْن»(٤).

---

(١) عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي: الرسل والرسالات، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط ٤، الكويت، ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩م، (ص ١٢١).

(٢) سورة المائدة: آية ١١٥.

(٣) الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّد ناصر الدين (ت ١٤٢٠هـ): سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر، ط١، والتوزيع، الرياض،١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، (١٠١/٣).

(٤) ابن كثير: السيرة النبوية، (١/ ٢٢٨)، البيهقي: دلائل النبوة، (١/ ١٣٥).

ونقل ابن إسحاق عن ثَوْرِ بْنِ يَزِيدِ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهم قالوا له: أخبِرْنا عن نفسِك قال نعم أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ وبُشرى عيسى ورأَتْ أمي حين حملتْ بي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام واسترْضِعْتُ في بني سعدِ بنِ بكرٍ فبينا أنا في بَهمٍ أتاني رجلان عليهما ثيابٌ بِيضٌ معهما طَستٌ من ذهبٍ مملوءٍ ثلجًا فأضجعاني فشقّا بطني ثم استخرجا قلبي فشقّاه فأخرَجا منه علقةً سوداءَ فألقَياها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلجِ حتى إذا ألقياه ردّاه كما كان ثم قال أحدُهما لصاحبه زِنْه بعشرةٍ من أمَّتِه فوزنَني بعشرةٍ فوزنتُهم ثم قال زِنْه بمائةٍ من أمَّتِه فوزنني بمائةٍ فوزنتُهم ثم قال زِنْه بألفٍ من أمتِه فوزنني بألفٍ فوزنتُهم فقال دَعْه عنك فلو وزنتَه بأمَّتِه لوزنَهم»([1]).

متى وقع الشَّقُ الأول؟: قيل إنه ﷺ لم يكن بلغ السنتين، وقيل وقع وعمره ثلاث أو أربع سنوات وهو الراجح وقيل خمس.

وقد أثبت الإمام مسلم رحمه الله صحة هذه الحادثة وأنها حسيَّة حقيقية وليست شقاً معنوياً في الحديث الذي رواه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ»، قَالَ أَنَسٌ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ» ([2]).

٣- شق الصدر الثاني.

وقع للنبي ﷺ قبيل الإسراء والمعراج مباشرة وهو ثابت في الصحيحين أيضاً عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ، يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ...»(٣).

الحكمة من هذه المعجزة: يبدو أنها كانت في المرة الأولى حصانةً للنبي ﷺ من الشيطان في طفولته ليستقبل شبابه مطهراً منزهاً لا سيما في مجتمع جاهلي، وفيها تهيئته ﷺ للعصمة والوحي منذ الصغر بوسائل ظاهرة ماديه ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس وتصديقهم برسالته، إذ هي عملية تطهير معنوي بشكل حسي، وأما في المرة الثانية فبها يَتَأَهَّبُ لرحلتي الإسراء والمعراج وما فيهما من الآيات أهمها المثول بين يدي الرب عز وجل وبلوغ المنزلة التي لم يصل إليها نبي مرسل ولا ملك مقرب وتلقي الوحي من الله مباشرة ليس بينه وبينه حجاب([4]).

([1]) أورده ابن كثير وقال إسناده جيد قوي. البداية والنهاية، (٢/ ٢٥٦).

([2]) مسلم: صحيح مسلم، (١٤٧/١)، رقم الحديث ١٦٢.

([3]) البخاري: الصحيح، باب ذكر إدريس عليه السلام وقول الله تعالى ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾، (٤/ ١٣٥) ، رقم الحديث ٣٣٤٢.

([4]) ابن كثير: السيرة النبوية، (١/ ٢٣١).

مرحلة الطفولة والشباب.

١– عودته ﷺ إلى أمه وزيارته لأخواله في المدينة.

عاد ﷺ بعد شق صدره مباشرة حيث خشيت عليه حليمة فردته إلى أمه آمنة بنت وهب، وكانت حليمة تتمني لو بقي مُحَمَّد عندها لا ترده أبداً حيث ألقى الله حبَّه ﷺ في قلبها وقلب زوجها ورأوا من بركته ما طابت به النفوس وقرت به العيون؛ لكن حليمة خافت من المسؤولية عن مُحَمَّد أمام جده عبد المطلب وأمه آمنه إن وقع له مكروه.

وأما عن عُمُرِه وقت عودته فقد حكى ابن كثير قول الواقدي عن ابن عباس: «أنه كان في الخامسة من عمره»، وذكر غيره أنه كان ابن أربع سنين أو غير ذلك وأنه ظل مع أمه آمنة وَجَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي كَلَاءَةِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ، يُنْبِتُهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا، لِمَا يُرِيدُ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ، حتى بَلَغَ سِتَّ سِنِينَ ﷺ (١).

٢– وفَاة أمه ﷺ ، وكفالة جده.

ولما بلغ مُحَمَّد ﷺ ستّ سِنِين على الصحيح خرجت بِهِ أمه إِلَى يثرب لزيارة قبر أَبِيه وأخوال جده من بني النجار مع حاضنته أم أَيمن فأقاموا هناك شهراً في دار النابغة بن النجار التي مات ودفن فيها أبوه(٢) ثمَّ قفلوا رَاجِعين إِلَى مكة فَلَمَّا كَانُوا بالأبواء(٣) تثاقل على أمه المرض ومَاتَت فَدخلت بِهِ أم أَيمن إِلَى مَكَّة وضمه جده إِلَيْهِ وَكَانَ يعلى مَنْزِلَته ويرق عَلَيْهِ وَيَقُول إِن لوَلَدي هَذَا شَأْنًا، وَقد كَانَ مَا قَالَ وَفَوق مَا تمنى، وَلم يزل يكفله إِلَى أَن بلغ ثَمَان سِنِين وَقيل تسعاً وَقيل عشراً وَقيل غير ذَلِك وَمَات جده بعد أَن أوصى أَبَا طَالب بِحِفْظ رَسُول الله(٤).

ظلّ رسول الله ﷺ يتذكّر تفاصيل تلك الرحلة التي رافق والدته فيها، ولما هاجر إلى المدينة ومرَّ بديار بني النجار تذكَّر لعبه مع الصبيان، وعَوْمَه هناك في ماء البئر، وعندما ذهب لعمرة الحديبية ووصل الأبواء مرَّ بقبر والدته، فتداعت المشاهد وتذكر الأحداث التي انطبعت في نفسه منذ طفولته ولم ولن ينسها حتى بعد مرور ما يقرب من نصف قرن من الزمن فجلس من الصباح إلى قريب من العصر والجيش منتظر ولا يعلم أحد سبب حبس الرسول واستأذن من الله –تعالى– أن يزور قبر أمه فأذن له، فقام وجعل يمشي بين القبور حتى وصل قبراً بعينه كأنه يعرفه ثم جلس عنده والصحابة ينظرون فإذا به يبكي عند القبر بكاء مريراً، حتى أبكى من حوله، ثم قال كما روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فأذن لي»(٥).

ومما يُذكر أنَّه ﷺ زار قبر أمه مرة أخرى في طريقه لفتح مكة، كما جاء في حديث بريدة ﷺ: قَالَ: «لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ أَتَى حَرَمَ قَبْرٍ فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ كَهَيْئَةِ الْمُخَاطِبِ، وَجَلَسَ النَّاسُ حَوْلَهُ فَقَامَ، وَهُوَ يَبْكِي فَتَلَقَّاهُ عُمَرُ، وَكَانَ مِنْ

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، (١/ ٢٣٥).

(٢) ابن سعد: الطبقات، (١/ ٧٩).

(٣) الأبواء على الطريق القديمة بين مكة والمدينة وهي تتبع محافظة رابغ الآن تبعد عن المدينة ١٦١كم وعن مكة ٢٠١كم. عبد الوهاب الطريري: الحياة النبوية، (١/ ٥٩).

(٤) الحلبي: المقتفى من سيرة المصطفى، (ص: ٣٩).

(٥) مسلم: صحيح مسلم، (٢/ ٦٧١)، رقم الحديث ٩٧٦.

أَجْرَأَ النَّاسِ عَلَيْهِ فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ، وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الَّذِي أَبْكَاكَ؟ قَالَ: هَذَا قَبْرُ أُمِّي سَأَلْتُ رَبِّي الزِّيَارَةَ فَأَذِنَ لِي، وَسَأَلْتُهُ الِاسْتِغْفَارَ فَلَمْ يَأْذَنْ لِي فَذَكَرْتُهَا فَذَرَفَتْ نَفْسِي فَبَكَيْتُ، قَالَ: فَلَمْ يُرَ يَوْمًا كَانَ أَكْثَرَ بَاكِيًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ»(١).

وهذا المشهد الوجداني المؤثر الذي هاجت منه النفوس يوضح مكانة الأم في النفس النبوية الطاهرة فتسجيل المشهد بدقة وتعيين مكان موت أمه ومعرفة قبرها وكل هذه الحنين والبكاء بعد مرور هذا الزمن الطويل وهو لم يعش معها كثيراً من الذكريات فماذا لو عاشت معه طفولته وأدركت نبوته وعايشته في جل حياته كيف نتصور بره بها ومعاملته لها أي أسوة كانت ستتلقاها البشرية منه في البر ولكن لله الحكمة البالغة ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾(٢).

٣- مُحَمَّد ﷺ في كفالة عمه.

اختار له جدُّه عمَّه أبا طالب ليكفله من بعده؛ لأنه كان شقيق عبد الله والد النبي ﷺ بخلاف بقية أعمامه الذين كانوا من أمهات أخر؛ ولأنه صاحب أولاد، ومن رزقه الله العيال يرعاهم ويرفق بهم ولا يهملهم، فألقى الله محبة مُحَمَّد ﷺ في قلب أبي طالب وزوجه فاطمة بنت أسد، فحماه هو وأبناؤه مع أنه استمر على شركه حتى موته ولكن الله جنده هو وقومه لنصرة النبي ﷺ فما نالت قريش منه ما نالت إلا بعد وفاة أبي طالب في عام الحزن، وهو أخف أهل النار عذاباً(٣).

والجدير بالملاحظة أن هناك حالة من اليتم ظلت تلازم النبي ﷺ في صغرة فقد مات أبوه قبل أن يولد، وحرم من أمه أربع أو خمس سنوات أمضاها في بادية بني سعد بن بكر بن هوازن بعيداً عن أسرته كلها، ولما عاد لم ينعم كثيراً في أحضان أمه التي عاد إليها بعد شق الصدر، وتخطفت المنية جده الذي غمره بالعطف والرعاية.

فترك هذا اليتم في نفسه أثراً عميقاً وكان يبكي إذا تذكر هذه الأحداث أو زار قبر أمه، لكن هناك حكمة من هذا الأمر فقد نشأ متعلقاً بالله في كل شؤون حياته، ولم يتعلق بأحد من البشر(٤).

ومن نعم الله سبحانه وتعالى أنه ما أخذ إلا وأعطى فكما اقتضت حكمته أن يتقلب نبيه ﷺ في هذه الحالة من اليتم المستمر في صغره، عوضه الله باعتناء المحيطين به وألقى محبته في قلوبهم بداية من حاضنته أم أيمن، ومرضعته حليمة وزوجها الذين تعلقا به وأحباه، ثم الجد الذي خفض له جناحه وشمله بحنانه وأغدق عليه من شفقته، ثم عمه أبو طالب وزوج عمه فاطمة بنت أسد رضي الله عنهما.

وقد وردت روايات تدل على تعلق أبي طالب بمحمد ﷺ مع كثرة أولاده لكنه ما كان يأكل إلا معه ولا يمكنه أن يفارقه ومما يدل على ذلك صحبته له في رحلته إلى الشام.

وأما فاطمة بنت أسد فلم تضق به عندما حل عليها في بيتها المملوء بالأبناء والأعباء؛ بل رحبت به ورعته كأمه تماماً حيث شكر لها رسول الله ﷺ رعايتها ومحبتها له عند موتها فكفنها في ثوبه وصلى عليها ونزل قبرها بنفسه وبكى بكاء الابن البار

---

(١) ابن أبي شيبة الكوفي، أبو بكر عبد الله بن مُحَمَّد (ت ٢٣٥ هـ): الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ضبطه وقدم له: كمال يوسف الحوت، (دار التاج – لبنان)، (مكتبة الرشد – الرياض)، (مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة)، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، (٣/ ٢٩).

(٢) عبد الوهاب الطريري: الحياة النبوية، (١/ ٦١)؛ والآية الكريمة من سورة القصص: ٦٨.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، (٤١٦/١)؛ الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٤٣٠/٢)

(٤) أكرم العمري: السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ، (١/ ١٠٥).

بأمه؛ نقل ابن الأثير عن عبد الله بن مُحَمَّد بن عمر بن علي، عن أبيه: «أن رسول الله ﷺ كفن فاطمة بنت أسد في قميصه، واضطجع في قبرها، وجزاها خيراً»(١).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ أُمُّ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَزَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَمِيصَهُ فَأَلْبَسَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا سَوَّى عَلَيْهَا التُّرَابَ قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ شَيْئًا مَا رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ بِأَحَدٍ، قَالَ : «إِنِّي أَلْبَسْتُهَا قَمِيصِي لِتَلْبَسَ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، وَاضْطَجَعْتُ فِي قَبْرِهَا لِيُخَفِّفُ عَنْهَا عَذَابَ الْقَبْرِ»(٢).

ولعل هذا كله هو ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾(٣)، يقول ابن كثير في التفسير: « عدَّد الله تعالى نِعَمَه على عبده ورسوله مُحَمَّد ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهَّالُهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم والأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وأحاطوه وقاتلوا بين يديه، ﷺ أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به»(٤).

ويقول البغوي: «﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ فقيراً حين مات أبواك ولم يخلفا لك مالا ولا مأوى، فجعلت لك مأوى تأوي إليه، وضممتك إلى عمك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤنة»(٥).

وهنا تذكير من الله لنبيه بنعمه عليه من أول الطريق؛ ليستحضر جميل صنع ربّه معه، وموَدَّته له، وفيضه عليه، من خلال النظر في واقع الحال وماضي الأيام، ألم تحط يتمك رعايته؟ ألم تدرك حيرتك هدايته؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه؟ لقد ولدت يتيماً فآواك إليه، وعطَّف عليك القلوب، حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك! ولقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة، عن أن تحسَّ الفقر، أو تتطلَّع إلى ما حولك من ثراء(٦).

---

(١) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن مُحَمَّد الجزري (ت ٦٣٠هـ): أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: مُحَمَّد إبراهيم البنا، مُحَمَّد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٨م، (٦/ ٢١٨).

(٢) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (ت ٤٣٠هـ): معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، ط١، الرياض، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م، (٦/ ٣٤٠٨).

(٣) سورة الضحى: آية (٦).

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٨ / ٤١٣).

(٥) البغوي، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد بن الفراء (ت ٥١٦هـ): معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، (٥/ ٢٦٨).

(٦) المرصفي: الجامع الصحيح للسيرة النبوية، (١/ ١٠٧- ١٠٨).

٧- اشتغاله ﷺ برعي الغنم في صباه، ثم اشتغاله بالتجارة في شبابه.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: «ما بَعَثَ اللهُ نبياً إلا رَعَى الغَنَمَ، فقالَ أصحابُهُ :وأنتَ؟، قال: نعم، كُنتُ أرعَاها على قَرَارِيطَ لأهلِ مكةَ»(١).

وظاهر الحديث أن ذلك قبل النبوة، والحكمة من ذلك أن يتمرن على رعاية الأمة وتوجيهها إلى ما فيه الصلاح؛ لأن الراعي للغنم تارة يوجهها للمرعى وتارة يبقيها واقفة وتارة يردها إلى المراح، فالنبي ﷺ سيرعى الأمة ويوجهها إلى الخير عن علم وهدى وبصيرة كالراعي الذي عنده علم بالمراعي الحسنة، وعنده نصح وتوجيه للغنم إلى ما فيه خيرها، وما فيه غذاؤها وسقاؤها، واختيرت الغنم لأن صاحب الغنم متصف بالسكينة والهدوء والاطمئنان بخلاف الإبل، فإن أصحابها في الغالب عندهم شدة وغلظة، لأن الإبل كذلك فيها الشدة والغلظة، فلهذا اختار الله سبحانه وتعالى لرسله أن يرعوا الغنم حتى يتعودوا ويتمرنوا على رعاية الخلق (٢).

وهنا دليل على عظيم تواضعه ﷺ بأن يحدث عن ماضيه وهو يزاول بعض الأعمال المشروعة طلباً للرزق والتي ربما يستنكف الناس ويتحرجون من ذكرها فالمهن الشريفة والأعمال التي يعملها الإنسان طلبًا للرزق لا إشكال فيها، ولا ينبغي أن يستحي الإنسان منها، ولو كانت ذات دخل قليل، فإن ذلك لا غضاضة فيه، ولا حرج، فالذي يعيب المرء هو سؤال الناس، والتكفف، أو القيام بأعمال محرمة.

ولما بلغ رسول الله ﷺ ثنتي عشرة سنة، قيل: وشهرين وعشرة خرج أبو طالب تاجرًا إلى الشام، يقول ابن إسحاق: «فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير صب له رسول الله فرَقَّ له أبو طالب وقال والله لأخرجن به معي ولا يفارقني، ولا أفارقه أبداً فخرج به معه حتى وصل إلى قرية بُصْرَى»(٣)، حَدَثَ ما رواه الترمذي في سننه، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمِ الرَّاهِبُ وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ قَالَ: فَهُمْ يَحِلُّونَ رِحَالَهُمْ فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمْ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ هَذَا يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخُ قُرَيْشٍ: مَا أَعْلَمَكَ؟ قَالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا وَلَا يَسْجُدُ إِلَّا لِنَبِيٍّ وَإِنِّي لَأَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ بِأَسْفَلِ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفَيْهِ مِثْلُ التُّفَّاحَةِ ثُمَّ صَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رَعِيَّةِ الْإِبِلِ قَالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ فَلَمَّا دَنَا نَظَرُوا إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى الشَّجَرَةِ فَلَمَّا جَلَس مال فيء الشجرة عليه، قَالَ: فَبَيْنَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ فَإِنَّ الرُّومَ لَوْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَقَتَلُوهُ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا هُوَ بِسَبْعَةِ نَفَرٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي بَلَغَنَا أَنَّهُ خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ نَاسٌ وَإِنَّا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ فَبُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكُمْ

(١) البخاري: الصحيح، باب رعي الغنم على قراريط، (٥٣/ ٨٨)، رقم الحديث ٢٢٦٢؛ والمقصود بالقراريط يعني أجزاء قليلة من الدرهم، أو الدينار.

(٢) العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد: شرح رياض الصالحين، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ، (٣/ ٥١١ – ٥١٣).

(٣) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص : ٥٣)، ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٨٠ – ١٨٢).

فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ خَلَّفْتُمْ خَلْفَكُمْ أَحَدًا هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟ قَالُوا: لَا إِنَّمَا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ فَبُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْضِيَهُ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ؟ قَالُوا: لَا، فَبَايَعُوهُ فَأَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: أَنْشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ قَالَ أَبُو طَالِبٍ: أَنَا فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ بِلَالًا وَزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الْكَعْكِ وَالزَّيْتِ»(١).

وخروج النبي ﷺ مع عمه إلى هذه الرحلة ثابت لم ينكره أحد غير أن وجود بلال فيها مما نبه ابن القيم على خطأه فإن بلالاً لم يكن موجوداً في هذه المرحلة المبكرة من حياة النبي ﷺ وهو من الخطأ الواضح الذي وقع فيه بعض الرواة وقد جاء من طرق أخرى بلفظ وأرسل معه رجلاً دون أن يسميه(٢).

٥- تجارته ﷺ في مال خديجة وزواجه منها.

لَمَّا بلغ رسول الله ﷺ خَمْسَاً وَعشْرين عاماً قصد الشَّام بِإِشَارَة عَمه أبي طَالب فِي تِجَارَةٍ لِخَدِيجَة: وَكَانَتْ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ، تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ عَلَى مَالِهَا مُضَارَبَةً، وكان رسول الله ﷺ يعمل في التجارة فَلَمَّا بَلَغَهَا مَا بَلَغَهَا مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ وَعِظَمِ أَمَانَتِهِ وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ، ومهارته في التجارة عَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ لَهَا فِي مَال تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ مَعَ غُلَامها مَيْسَرَةُ وَتُعْطِيهِ أَفْضَلَ مَا تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ التُّجَّارِ، فأشار عليه عمه أبو طالب بالقبول فقبل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَخَرَجَ فِي مَالِهَا وَخرج مَعَه ميسرَة الذي كان يُسَرُّ بِمَا يرى من أخلاقه وطريقته في البيع والشراء.

وعاد ميسرة يحدث سيدته بعجيب ما رأى في مُحَمَّد ﷺ مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ وَعِظَمِ أَمَانَتِهِ وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ، فأعجبها منه خلقه وديانته ومهارته حيث تضاعفت أرباح تجارتها التي معه وَحَدَّثَهَا مَيْسَرَةُ عَنْ قَوْلِ الرَّاهِبِ، وَعَمَّا كَانَ يَرَى مِنْ إِظْلَالِ الْمَلَائِكَة إِيَّاهُ، وَكَانَتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً حَازِمَةً شَرِيفَةً لَبِيبَةً، مَعَ مَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَا مِنْ كَرَامَتِهَا.

فَلَمَّا أَخْبَرَهَا مَيْسَرَةُ مَا أَخْبَرَهَا بَعَثَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وعَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ وقَالَت لَهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ: يَا ابْنَ عَمِّ إِنِّي قد رغبت فِيك لقرابتك ووسطتك فِي قَوْمِكَ، وَأَمَانَتِكَ وَحُسْنِ خُلُقِكَ وَصِدْقِ حَدِيثِكَ، وَكَانَتْ هي أَوْسَطَ نِسَاءِ قُرَيْشٍ نَسَبًا وَأَعْظَمَهُنَّ شَرَفًا وَأَكْثَرَهُنَّ مَالًا، وَكُلُّ رجال قَوْمِهَا كَانَ حَرِيصًا أن يتزوجها، فَلَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ ذَلِكَ لِأَعْمَامِهِ، فَخَرَجَ مَعَهُ عَمُّهُ حَمْزَةُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ فَخَطَبَهَا إِلَيْهِ، ثم تَزَوَّجَهَا ﷺ(٣)، وكان صداقها عِشْرِينَ بَكْرَةً، وَهي أول من آمن به ﷺ، وأَوَّلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا، فوَلَدَتْ له ﷺ وَلَدَهُ كُلَّهُمْ: الْقَاسِمَ وَكَانَ بِهِ يُكْنَى، وَالطَّيِّبَ، وَالطَّاهِرَ، وَزَيْنَبَ، وَرُقَيَّةَ، وَأُمَّ كُلْثُومٍ، وَفَاطِمَة، إِلَّا إِبْرَاهِيمَ فإنه من مارية، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى خديجة غَيْرَهَا حَتَّى مَاتَتْ إكراماً لها وظل بقية حياته يذكرها ويصل أرحامها(٤).

---

(١) الترمذي: السنن، (٦/ ١٤)، الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (ت ٤٣٠هـ): دلائل النبوة، تحقيق: مُحَمَّد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، دار النفائس، ط٢، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، (ص: ١٧٠)، و«هَذَا الحَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ قال عنه المحقق لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ».

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، (١/ ٧٦- ٧٨).

(٣) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص : ٨١، ٨٢).

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٩٠)، الحلبي (ت: ٧٧٩هـ): المقتفى من سيرة المصطفى، (ص: ٤٦).

وفضل خديجة ﵂ معلوم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: «أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ»(١).

فالجزاء من جنس العمل فكما هيئت لرسول الله ﷺ بيتاً في الدنيا لا صخب فيه ولا نصب كانت المكافأة ببيت من عيدان اللؤلؤ لا ضجيج فيه ولا تعب.

وأما عن سن هذا الزواج المبارك فيقول ابن هشام: «وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثني غير واحد من أهل العلم»(٢)، ونقل ابن كثير عن البيهقي عن الحاكم: «أن عمر خديجة إذ ذاك كان خمسًا وثلاثين، وقيل خمسًا وعشرين سنة»(٣)، بينما المشهور ما نقله ابن سعد عن الواقدي قال: «وتزوّجها رسول الله، -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة»(٤).

ما الأسس التي قام عليها هذا الزواج المبارك؟

كيف اختار كل منهما صاحبه، لماذا اختارها رسول الله ﷺ وهو بكر شاب وهي ثيب سبقه إليها رجلان(٥) وتكبره سناً، وكيف تقبله وهو فقير كان يعمل في مالها؟.

- تزوج مُحَمَّد ﷺ خديجة ﵂ لعفتها وطهارتها وشرف نسبها لا سيما في مجتمع عز أن تجتمع هذه الصفات في امرأة.
- وقبلته لصدقه وأمانته وشرفه وهذه صفات نادرة أن تجتمع في رجل.

وعلى هذه القواعد المتينة دام هذا الزواج المبارك قريباً من ربع قرن من الزمن لم يجمع معها رسول الله ﷺ غيرها من النساء لا بالزواج ولا بملك اليمين ولا بالتسري ولا غيره وهذا يدلُّ على مكانتها الكبيرة في قلبه وحبِّه الشديد لها؛ ولأنها جعلته لا يحتاج امرأةً غيرها، معَ طُولِ المدة التي عاشت فيها معه ﷺ.

- لم يفرق بينهما إلا موتها ﵂.
- ظل رسول الله ﷺ وفيًا لها بقية حياته حتى بعدما تزوج البكر.

---

(١) البخاري: الصحيح، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، (٥/ ٣٩)، رقم الحديث ٣٨٢٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٧١).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/ ٢٦٠).

(٤) ابن سعد: الطبقات، (١/ ١٠٩).

(٥) هما عتيق بن عائذ بن مخزوم وولدت له جارية اسمها هند، فلما مات تزوجها أبو هالة مالك بن النباش بن زرارة التميمي فولدت له ثلاثة أبناء هم: هند وهالة والطاهر، وهؤلاء الأربعة أسلموا جميعاً ونالوا شرف الصحبة، وقد ذكرهم العلماء في جملة الصحابة، وبعضهم تولى بعض الأعمال لرسول الله ﷺ. ابن الأثير: أسد الغابة،(٢/٤٥٥)، (٦/ ٤٠٦)؛ ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد (ت ٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت، ١٤١٥ هـ، (٣/ ٤١٨).

■ غار منها نساؤه وهي في التراب من كثرة ذكره لها وصلته لأقاربها وإكرامه لصواحبها.

عن عائشة ﵂ قالت: «ما غِرْتُ علَى أحَدٍ مِن نِسَاءِ النَّبيِّ ﷺ، ما غِرْتُ علَى خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، ولَكِنْ كانَ النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، ورُبَّما ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّما قُلتُ له: كَأنَّهُ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلَّا خَدِيجَةُ، فيَقولُ: إنَّهَا كَانَتْ، وكَانَتْ، وكانَ لي منها ولَدٌ»(١).

وقد مثلت السيدة خديجة نموذجاً صالحاً يُقتدى به في الجوانب الآتية:

- نموذج يقتدى به للزَّوجة الصَّالحة التي تواسي زوجها وتسانده وتساعده بلا مِنَّةٍ أو كللٍ أو مللٍ، ونعم الزوجة الوفية الصادقة المخلصة.

- نموذجٍ يقتدى به للزَّوجة التي تثبت زوجها عند الشدائد والأزمات؛ وتسري عنه بل تحضُّه على الصبر والثبات، بنفسٍ مطمئنة، وعقلٍ راجحٍ، وبصيرةٍ نافذةٍ، وإيمانٍ راسخٍ، وكلماتٍ صادقةٍ.

- أعظم نموذج يُقتدى به للزوجة حسنة المعشر، والتي تشكر العشير.

- نموذج للمرأة المسلمة التي تهب نفسها وبيتها لخدمة الإسلام، ولدعوتها ورسالتها وأمتها، وأهلها وزوجها وأولادها.

٦- مشاركته ﷺ في بِنَاءُ الْكَعْبَةِ ووضعه الحجر الأسود في موضعه.

عندما بلغ النَّبِي ﷺ الخامسة والثلاثين من عمره؛ وقبل النبوة بخمس سنين غمر مكة سَيْلٌ عظيم اندفع ماؤه داخل الْبَيْت فتصدعت جدرانه وخافوا عَلَيْهِ أَن يتهدم وَيَقَع، وَأَقْبَلت فِي الوقت نفسه سفينة رومية دفعتها الرّيح فِي الْبَحْر إِلَى ميناء الشعيبة(٢) فتكسرت، عندها استبشرت قُرَيْش، وعلمت أَن أُمُور بناء الكعبة تيسرت فجمعوا ما حَلَّ من أموالهم واتفقوا ألا يدخلوا في بنائها مالاً محرماً، ولما بدأوا في البناء اقتسموا العمل فَوَقع لكل قَبيلَة جِدَار من أَرْبَعَة فَلَمَّا انْتَهوا إِلَى حَيْثُ يوضع الْحجر الأسود طلبت كل قَبيلَة الْفَوْز بِوَضْعِهِ لتنال الشرف وتستأثر بالفضل وحدها، وَوَقع خلاف بينهم في ذلك فذكر البعض: «أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي - وكان يومئذ أَسَنَّ رجال قريش— قال: اجعلوا بينكم أولَ من يدخل من باب المسجد ففعلوا، فكان أولَ من دخل: رسولُ الله ﷺ فلما رأوه، قالوا: هذا الأمين، رضينا به، هذا مُحَمَّد، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، فقال النبي ﷺ: هلَّم إليَّ ثوبًا، فأُتِيَ به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه: وضعه ﷺ بيده ثم بنى عليه»(٣).

---

(١) البخاري: الصحيح، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، (٥/ ٣٨)، رقم الحديث ٣٨١٨.

(٢) الشُّعَيْبة: مرفأ على ساحل البحر الأحمر جنوب جدة بحوالي ٦٨ كم، كانت ميناء مكة قديماً حتى صرف ذلك عثمان ﵁ إلى جُدَّة. البلادي، عاتق بن غيث (ت ١٤٣١هـ): معالم مكة التأريخية والأثرية، دار مكة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، (ص ١٤٧).

(٣) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص : ١٠٨)؛ ومثل هذا الخبر رواه الإمام أحمد في المسند من حديث السائب بن عبد الله ومن غير طريق ابن إسحاق. المسند (٣/ ٤٢٥).

وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم الحجارة وكان الشباب يرفعون أُزُرَهم على عواتقهم، ففعل رسول الله ﷺ مثلهم: «فَبَيْنَا هو كذلك إِذِ انْكَشَفَتْ سوءته فَنُودِيَ يَا مُحَمَّدُ اسْتُرْ عَوْرَتَكَ وَذَلِكَ أَوَلُ مَا نُودِيَ، فَمَا رُئِيَتْ عَوْرَتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ»([1])

روى البخاري عن جابر بن عبد الله ﷺ: «أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة، وعليه إزاره، فقال له العباس عمه يا ابن أخي، لو حللت إزارك، فجعلت على منكبيك دون الحجارة، قال: فحله فجعله على منكبيه، فسقط مغشياً عليه، فما رئي بعد ذلك عرياناً ﷺ »(٢).

وينسبون إلى الوليد بن المغيرة قوله: «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيه مهر بغي، ولا بيع رباً، ولا مظلمة أحد من الناس، فاستجابوا له الأمر الذي ترتب عليه قصور في النفقة الطيبة فلم يكف ما معهم لإعادة البناء على ما كان عليه سابقاً فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع، وهي التي تسمى بالحِجْر والحطيم ورفعوا باب الكعبة عن الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة»([3]) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن خبر اختلاف قريش في وضع الحجر في مكانه المطلوب وحكم النبي ﷺ بينهم فيه دليل على ما وهب الله نبيه ﷺ من الحكمة وسداد الرأي والهداية التي جنبت قريشاً سفك الدماء لا سيما أن الروايات تؤكد استمرار النزاع بينهم أربع أو خمس ليال دون الوصول إلى طريقة للوفاق حتى كان نزع فتيل الفتنة على يد رسول الله ﷺ ([4]).

كما تؤكد الأحداث أن المشركين في جاهليتهم كانت لديهم المعرفة بالحلال والحرام من الأموال ومن ثم وجههم الله ألا يدخلوا في بناء بيته إلا الحلال وهو عزيز في مجتمع الجاهلية الذي يسوده الربا والبغي والغش فأبى الله إلا الطيب لبيته.

---

(١) المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الواحد (ت: ٦٤٣هـ): الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، (٨/ ٢٢٩).

(٢) البخاري: الصحيح، باب كراهية التعري في الصلاة وغيرها، (١/ ٨٢)، رقم الحديث: ٨٢.

(٣) صفي الرحمن المباركفوري (ت ١٤٢٧هـ): الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، (د –ط)، (ص ٥٥)؛ مُحَمَّد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، (ص: ٤١٠).

(٤) مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (دراسة تحليلية)، مطبوعات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، الرياض، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، (ص: ١٣٩).

تحنثه ﷺ في غار حراء ونزول الوحي.

١- بدء تحنثه ﷺ في غار حراء حين بلغ سن الأربعين.

كان رسول الله ﷺ يحب أن يخلو بنفسه ويعتكف عن الناس داخل غار حراء(١) وذلك قبيل بلوغه سن الأربعين يَتَحَنَّثُ أو يَتَحَنَّفُ(٢) فيحمل معه ما يكفيه من طعام وشراب لقضاء عشرة أيام أو أكثر في شهر رمضان كل عام منقطعاً لعبادته(٣)، قال ابن حجر في الفتح: «وَكَأَنَّهُ مِمَّا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْ أُمُورِ الشَّرْعِ عَلَى سُنَنِ الِاعْتِكَافِ، وَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَفْعَلُهُ»(٤).

وقد اخْتُلِفَ فِي تَعَبُّدِهِ ﷺ هَلْ كَانَ مُتَعَبِّدًا بِشَرْعٍ سَابِقٍ أَوْ لَا؟ وَبِمَاذَا كَانَ يَتَعَبَّدُ؟ فقِيلَ بِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ أَنْوَارِ الْمَعْرِفَةِ، وَقِيلَ بِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الرُّؤْيَا، وَقِيلَ بِالتَّفَكُّرِ، وَقِيلَ بِاجْتِنَابِ رُؤْيَةِ مَا كَانَ يَقَعُ مِنْ قَوْمِهِ(٥).

ولا شك أن المعتكف عن الناس يشغل وقته بالتفكر في ملكوت السماوات والأرض، والتأمل في حال الدنيا وأهلها ونعم الله عليهم، كما مدح الله عباده ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٦).

ولا يحق لنا الآن الانصراف الكلي والانعزال التام عن المجتمع واتخاذ الكهوف والجبال موطناً تطبيقاً لعبادة الاختلاء فهذا مخالف لهديه ﷺ وسنة أصحابه وإنما الخلوة دواء لا يؤخذ منه إلا بقدر وعند اللزوم فقط، فلم نر في تراجم الصحابة والتابعين من فعل ذلك ومردُّه أنه حالة خاصة بالنبي ﷺ في فترة محددة فقط انتهت بنزول الملك «حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ» فحَتَّى هُنَا لانْتِهَاءِ الْغَايَةِ، أَيِ انْتَهَى تَوَجُّهُهُ لِغَارِ حِرَاءٍ بِمَجِيءِ الْمَلَكِ فَتَرَكَ ذَلِكَ، ولم يثبت عنه فعله بعد النبوة(٧).

---

(١) والْحِكْمَةُ فِي تَخْصِيصِ حراء بِالتَّحَلِّي فِيهِ أَنَّ الْمُقِيمَ فِيهِ كَانَ يُمْكِنُهُ رُؤْيَةَ الْكَعْبَةِ فَيَجْتَمِعُ لِمَنْ يَخْلُو فِيهِ ثَلَاثُ عِبَادَاتٍ: الْخَلْوَةُ، وَالتَّعَبُّدُ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْبَيْتِ. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد (ت ٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، ط ١، مصر، ١٣٩٠هـ، (١٢/ ٣٥٥)، رقم الحديث ٦٩٨٢.

(٢) يَتَحَنَّفُ: أَيْ يَتَّبِعُ الحنيفية وَهِيَ دِينُ إِبْرَاهِيمَ، والتَّحَنُّثُ هو التَّعَبُّدُ. الفيومي، أحمد بن مُحَمَّد بن علي، الحموي، أبو العباس (ت نحو ٧٧٠ هـ): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م، (١ /١٤٥).

(٣) مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص: ١٤٥).

(٤) ابن حجر: فتح الباري، (١٢/ ٣٥٥)، رقم الحديث ٦٩٨٢.

(٥) ابن حجر: فتح الباري، (١٢/ ٣٥٥)، رقم الحديث ٦٩٨٢.

(٦) آل عمران: آية ١٩١.

(٧) ابن حجر: فتح الباري، (١٢/ ٣٥٥)، رقم الحديث ٦٩٨٢.

بل إن مخالطة الناس والصبر على أذاهم خير من الانعزال عنهم ومقاطعتهم كما أورد البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»(١).

وقد كانت بعثته ﷺ بعدما بلغ الأربعين من عمره، روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَمَكَثَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ ﷺ»(٢).

٢- نزول الوحي عليه ﷺ بأوائل سورة اقرأ، ورجوعه إلى خديجة وتثبيتها له.

روى البخاري عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ، قَالَ «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ(٣)، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ، قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ. فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾(٤) فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ﵂ فَقَالَ «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ(٥)، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ(٦)، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ(١)، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ

---

(١) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ): السنن الكبرى، تحقيق: مُحَمَّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت - لبنان، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م، باب فضل المؤمن القوي الذي يقوم بأمر الناس، ويصبر على أذاهم، (١٠/ ١٥٣)، رقم الحديث: ٢٠١٧٤.

(٢) البخاري (ت٢٥٦هـ): الصحيح، باب مبعث النبي، رقم الحديث ٣٨٥١، (٥/ ٤٥).

(٣) غَطَّنِي: الغَطُّ والغَتّ سَوَاءٌ وهو الضم الشديد الذي يحبس معه النفس، والمراد عَصَرني عَصْراً شَدِيدًا حَتَّى وجَدْت مِنْهُ المشقَّة، كَمَا يَجِد مَن يُغْمَس فِي الْمَاءِ قَهراً. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن مُحَمَّد الجزري (ت ٦٠٦هـ): النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود مُحَمَّد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، (٣/ ٣٤٢).

(٤) سورة العلق: الآيات من ١ — ٣.

(٥) الكَلّ: الثقيل من كل شيء في المؤونة والجِسْم، والمراد به الضعيف، أو اليتيم والمسافر، وهو الذى أصابه الكَلال، والكلُّ هو الذى يعتمد على صاحبه، قال الله تعالى: {وَهُوَ كَل عَلَى مَوْلاهُ}. عياض، بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، القاضي (ت ٥٤٤هـ): شَرْحُ صَحِيح مُسْلِم لِلقَاضِي عِيَاض المسَمَّى إِكمَالُ المعْلِم بفَوَائِدِ مُسْلِم، تحقيق: يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، مصر، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، (١/ ٤٨٦).

(٦) تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ: تُعْطِي النّاسَ الشَّيْءَ المعدومَ عِنْدَهُم، وتُوَصِّلُهُ إليهم. الزَّبيدي: تاج العروس، (٤/ ١٤٥).

وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ – وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِىَ – فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ(٢) الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى عليه السلام يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا(٣)، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»، قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ(٤) وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ»(٥).

٣– انقطاع الوحي ثم تتابعه بنزول أوائل المدثر.

قال ابن إسحاق: «ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه وأحزنه، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الضحى، قال الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى* وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾(٦) يقسم له ربه، وهو الذي أكرمه بما أكرمه به، ما ودعه وما قلاه(٧).

وعن عودة الوحي بعد الفترة روى البخاري عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ – وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ – فِي حَدِيثِهِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ* وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾(٨) فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ(٩) .

---

(١) النّوائِب: جمعُ نائِبةٍ، وَهِي مَا يَنوبُ الإِنسانَ، أَي :يَنْزِلُ بِه من المهِمّات والحوادث والمصائب. ابن حجر: فتح الباري، (١٢/ ٣٥٢)، رقم الحديث ٦٩٨٢، الزَّبيدي: تاج العروس، (٤/ ٣١٧).

(٢) النَّامُوس صَاحِبُ السِرِّ وأَراد بِهِ وَرَقَةُ جبريلَ عليه السلام؛ لأَن الله تَعَالَى خَصَّهُ بِالْوَحْيِ وَالْغَيْبِ اللَّذَيْنِ لَا يطَّلع عَلَيْهِمَا غَيْرُهُ. ابن منظور: لسان العرب، (٦/٢٤٤).

(٣) يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا: الضَّمير فِي فِيهَا للنُّبُوّة: أَيْ يَا لَيْتَنِي كنْتُ شَابًّا عِنْدَ ظُهُورها، حَتَّى أَبَالِغ فِي نُصْرَتِها وحِمَايَتِها. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (١/ ٢٥٠).

(٤) لَمْ يَنْشَبْ: لم يَلْبَثْ. الزَّبيدي: تاج العروس، (٤/ ٢٦٦).

(٥) البخاري: الصحيح، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله، (١/ ٧)، رقم الحديث ٣.

(٦) سورة الضحى: الآية ١– ٤.

(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ٢٤١).

(٨) سورة المدثر: الآية من١– ٥.

(٩) البخاري: الصحيح، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله، (١/ ٧ ، ٨) ، رقم الحديث ٤.

المسلمون الأوائل.

تنوعت أساليب الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ فمنها ما كان سراً لمن يثق بهم رسول الله ﷺ من أقاربه وأرحامه وأصدقائه، ومنها الدعوة الجهرية حيث جاهر قريشاً وغيرها علناً عياناً.

بدأت الدعوة عموماً بأمر الله لنبيه ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ* وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾(١)، فاستجاب رسول الله ﷺ لأمر ربه وأخذ يدعو إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام سراً حذراً من قريش التي كانت متعصبة لشركها، فاقتصرت دعوته على أقربائه وأصدقائه ومن يثق بهم من المقربين إليه، ولم يظهر الدعوة في المجالس العمومية لقريش، واستمر ﷺ هكذا مدة، آمن به خلالها جماعة ممن يسلِّمون بصدقه دون تردد ولا كثير مجادلة منهم من أقاربه: زوجه أم المؤمنين خديجة ﵂، وهي أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ (٢) وفضلها معلوم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: " أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَنَصَبَ(٣).

وابن عمه على بن أبي طالب ﵁ الذي كان في حجره وهو يومئذ ابن عشر سنين على الأصح، ومولاه زيد بن حارثه، وحاضنته أم أيمن، وابن عمته الزبير بن العوام، وخاله سعد بن أبي وقاص ثم أسلم بلال، وطلحة ﵃ أجمعين (٤).

ومن أصدقائه أسلم أبو بكر الصديق واسمه عبد الله بن أبي قحافة، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وثبت أن ورقة بن نوفل من السابقين إلى الإسلام وغيرهم ﵃ أجمعين، وجملة من استجاب للدعوة في السنوات الثلاث الأُوَل ما بين ثلاثين إلى أربعين، كانوا يمارسون شعائرهم سراً فلما كثر عددهم كان رسول الله ﷺ يجتمع بهم في دار واحد منهم هو الأرقم بن أبي الأرقم ﵁ وهؤلاء هم الرعيل الأول لا خلاف في ذلك، أما غيرهم فقد اختلف رواة السيرة في تعيينهم وحصر عددهم(٥) .

يقول ابن هشام نقلاً عن شيخه ابن إسحاق: «ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء ولما فشى ذِكْرُ الإسلام بمكة وتحدَّث به الناس أمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق فقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(٦)، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٧)، حينئذٍ استجاب رسول الله ﷺ لأمر ربه وأمَرَ علياً ﵁ أن يصنع طعاماً دعى إليه أهله من بني عبد المطلب – أعمامه وأولادهم نحواً من خمس وأربعين رجلاً – فلما اجتمعوا وأكرمهم النبي ﷺ دعاهم إلى التوحيد وكان مما قال:

---

(١) سورة المدثر: الآية من١ – ٥.

(٢) البيهقي: دلائل النبوة، (٢/ ١٦٢)؛ الحلبي: المقتفى من سيرة المصطفى، (ص: ٤٦).

(٣) البخاري: الصحيح، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، (٥/ ٣٩)، رقم الحديث ٣٨٢٠.

(٤) مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص: ١٥٧).

(٥) مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص: ١٥٩).

(٦) سورة الحجر: الآية ٩.

(٧) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

«إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً، وإنكم لأول من أنذر، ومَثَلي ومثلُكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك ومرافدتك وأقبلنا لنصحك وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم، غير أني والله أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير إني لا أجد نفسي تطوع إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه، وتكلم القوم كلاماً ليناً غير أبي لهب فإنه قال: يا بني عبد المطلب هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم.

فقال أبو طالب: والله لنمنعنَّه ما بقينا، وقالت صفية لأبي لهب: أي أخي أيحسن بك خذلان ابن أخيك وإسلامه؟ فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من نسل عبد المطلب نبي فهو هو، فقال: هذا والله الباطل والأماني وكلام النساء في الحجال، إذا قامت بطون قريش كلها وقامت معها العرب فما قوتنا بهم؟ فوالله ما نحن عندهم إلا إكلة رأس»(١).

انتقل النبي ﷺ بعد ذلك إلى الصفا وصعده ونادى كما جاء في صحيح البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٢)، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ علَى الصفا فجعل يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي ﴿نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٣)، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾(٤) من هنا بدأ العداء للإسلام من أول لحظة ولدت فيها الدعوة، لكن هذا العداء لم يفقد النبي ﷺ قوته وتفانيه في التبليغ بل كان حافزاً قوياً في المضي قدماً.

---

(١) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٢/ ٣٢٣).

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤

(٣) سورة سبأ: الآية ٤٦.

(٤) البخاري: الصحيح، باب وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك ألن جانبك، (٦/ ١١١)، رقم الحديث ٤٧٧٠، والآيات من سورة المسد: ١ ، ٢.

١ – تعذيب قريش للمسلمين الأوائل.

تباين موقف قريش من النبي ﷺ وأصحابه بين الإيذاء والإغراء والتحذير، فقد كان من الطبيعي أن تقف قريش من الدعوة الإسلامية موقفاً معادياً ففضلاً عن تعصبهم لشركهم فقد رأوا أنَ هذا الدين الجديد يهدد كيانهم المادي والأدبي.

- فالكعبة مركز عبادة الأصنام ولكل قبيلة صنم تأتيه وتسوق الهدي والذبائح له في كل موسم.
- وهي محج العرب ومصدر ثروة قريش.
- وزعامة قريش للعرب وفخرهم بسبب خدمة البيت وحراسة الأصنام وسقاية الحجاج ورفادتهم، وانتصار مُحَمَّد ﷺ وانتشار دينه ضياع لكل هذا السلطان الأدبي والمادي.

أساليب قريش في محاربة الدعوة..

أولاً: أسلوب الإيذاء الحسي والمعنوي.

وهذا الأسلوب استخدمته قريش ضد الرسول ﷺ وأصحابه السابقين إلى الإسلام، وقد أورد المحدثون والمؤرخون عدة أمثلة على ذلك منها :

١ – ما صح عن طَارِقٍ بن عبد الله الْمُحَارِبِيّ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مرَّ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا، وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيَهُ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى كَعْبَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: غُلَامُ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟ قَالُوا: هَذَا عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ»(١).

٢ – ما فعلته زوج عمه أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، كانت تحمل الشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ، ليعقره وأصحابه حيث يمر، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمَا: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ* وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾(٢)، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الجيد: العُنق(٣) .

٣ – كما ألقى عُقْبَةُ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ سلى الجزور على النبي ﷺ وهو يصلي، روى البخاري عَنْ أَبِي إِسْحَاق، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ حَدَّثَهُ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ (عُقْبَةُ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ) فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لاَ أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ لاَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ

---

(١) ابن خزيمة النيسابوري، أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق السلمي (ت ٣١١ هـ): صحيح ابن خزيمة، تحقيق مُحَمَّد مصطفى الأعظمي، راجعه وعلق على بعض أحاديثه: مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، (١/ ٨٢)، رقم الحديث ١٥٩، ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/ ٥).

(٢) سورة المسد: الآيات ١ – ٥.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/ ٥).

دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» – وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ – قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرْعَى، فِي القَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ»(١).

٤ – ومما فعله عُقْبَةُ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ أيضاً ورواه البخاري عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ المُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ»(٢).

٥ – ومن ذلك أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد يكنى أبا زمعة من أشراف قريش المستهزئين الذين يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه إذا رأوهم و يسخرون منهم ويلمزونهم(٣)، ويقولون: «قد جاءكم ملوك الأرض و من يغلب على كنوز كسرى وقيصر»، ثم يمكون ويصفرون، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ* وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ* وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ* وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾(٤).

وكان الأسود يجلس ومن معه من المشركين، فيقولون: «ما ندري ما جاء به مُحَمَّد؟ ما هو إلا سجع كسجع الكهان». فنزلت فيهم: «الذين جعلوا القرآن عضين» ، أى عضة عضة.

و كانوا يُسألون عن النبي صلى الله عليه و سلم، فيقول بعضهم: «مجنون»، و يقول بعضهم: «ساحر» و يقول بعضهم: «شاعر» و يتحدثون عليه و يصدّون الناس عنه. فأنزل الله عز و جل: «وليحملنّ أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم» . يقول: أوزار من يصدّونه عن الإسلام.

دعا عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يعمى الله بصره وأن يثكل ولداه، فخرج يستقبل ابنه و قد قدم من الشام، فلما كان في بعض طريقه، جلس في ظل شجرة، فجعل جبريل عليه السلام يضرب وجهه و عينيه بورقة من ورقها خضراء، و بشوك من شوكها، حتى عمى، و يقال: إنّ جبريل عليه السلام أومأ إلى عينيه، فعمى، فشغل عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لما كان يوم بدر، قتل ابناه زمعة بن الأسود، عقيل.

---

(١) البخاري: الصحيح، كتاب الوضوء/ باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، (١/ ٥٧)، رقم الحديث ٢٤٠. ومسلم: الصحيح، كتاب الجهاد والسير/ باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٤١٨/٣) رقم الحديث: ١٧٩٤.

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب أصحاب النبي ﷺ/ باب قول النبي ﷺ (لو كنت متخذًا خليلًا)، (٥/ ١٠)، رقم الحديث ٣٦٧٨؛ سورة غافر: آية: ٢٨.

(٣) علي بن إبراهيم الحلبي (ت: ١٠٤٤هـ): السيرة الحلبية، (١/ ٤٥٠).

(٤) الخضري، الشيخ مُحَمَّد بن عفيفي الباجوري، (ت ١٣٤٥هـ): نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دار الفيحاء، ط٢، دمشق، سوريا، ١٤٢٥هـ، (ص ٤١)؛ والآيات من سورة المطففين: ٢٩ – ٣٢.

يقول الأسود بن المطلب: دعوت على مُحَمَّد أن يكون طريداً في غير قومه و بلده، فاستجيب لي، ودعى عليَّ بعمى عينيَّ، فعميت، وأن أثكل ولديَّ، فثكلتهم.

مات الأسود بمكة، و هم يتجهزون لأحد، وهو يحثهم و يشجعهم في مرضه، و قد قارب المائة(١).

٦- موقف الوليد بن المغيرة عم أبي جهل، كان من وجهاء قريش في الفصاحة والبلاغة وسعة العيش، سمع القرآن يوماً من رسول الله ﷺ، فقال لقومه من بني مخزوم: «والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا، والله إنّ له لحلاوة، وإنَّ عَلَيْهِ لَطُلَاوَة(٢)، وأن أعلاه لمثمر، وأن أسفله لمغدق(٣)، وأنه يعلو وما يعلى»(٤)، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، لتصبأنَّ قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه فتوجه وقعد إليه وكلمه بما حمَّسه ضد مُحَمَّد، وقال له: قل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له، فقال له دعني أفكر فيه، فلما اجتمع بقومه قال وقد حضر الموسم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذِّبَ بعضُكم بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأيا نقوله فيه قال: أتزعمون أن محمّداً مجنون فهل رأيتموه يهوّس؟(٥) وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ؟ وتزعمون أنه كذَّاب فهل جرَّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك اللهمَّ لا، ثم قالوا فما هو؟ ففكر قليلاً ثم قال: ما هو إلّا ساحرٌ، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فارتجَّ النادي فرحاً فأنزل الله فيه من سورة المدثر مخاطباً رسوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾»(٦) .

أما **موقف قريش من أصحاب النبي** ﷺ الذين اتبعوه فكان أشد قسوة لا سيما الضعفاء قال ابن إسحاق: «ثم إن قريشاً تعاهدوا بينهم على مَنْ في القبائل مِنْ أصحاب رسول اللَّه ﷺ الذين أسلموا، فوثبت كلُّ قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين يعذِّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتدَّ الحرُّ ممن استضعفوه منهم، وكان أبو جهل هو الذي يغري بهم رجال قريش»(٧)، وهذه بعض الأمثلة :

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٤٩.

(٢) إنَّ عَلَيْهِ لَطُلَاوَة: بفتح الطاء أو ضمها، أَيْ رَونَقاً وحُسْناً. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٣/ ١٣٧).

(٣) الغَدَق، بِفَتْحِ الدَّالِ: الْمَطَرُ الْكِبَارُ الْقَطْرِ، والمغْدِقُ المكثر الواسع. ابن منظور: لسان العرب، (٢٨٣/١٠).

(٤) القسطلاني: المواهب اللدنية، (٢/ ٢٤٣).

(٥) الهَوَسُ: طَرَفٌ من الجُنُونِ. الزَّبيدي: تاج العروس، (١٧/ ٤٦).

(٦) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٢/ ٣٥٥)؛ الخضري: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، (ص ص٤١ - ٤٢)، والآيات من سورة المدثر: ١١ - ٢٧.

(٧) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ١٤٦)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٢/ ٣٥٧).

❁ بلال بن رباح ﷺ.

وكان صادق الإسلام طاهر القلب عذَّبه أُمَيَّةُ بن خلفٍ كثيراً حَتَّى مَرَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَوْمًا، وَهُمْ يَصْنَعُونَ بِهِ ذَلِكَ، وَكَانَتْ دَارُ أَبِي بَكْرٍ فِي بَنِي جُمَحَ، فَقَالَ لِأُمَيَّةَ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذَا الْمِسْكِينِ، حَتَّى مَتَى؟ قَالَ: أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ فَأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَفْعَلُ، عِنْدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وَأَقْوَى وهو عَلَى دِينِكَ، أُعْطِيكَهُ بِهِ، قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ، قَالَ: هُوَ لَكَ. فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ غُلَامَهُ ذَلِكَ، وَأَخَذَ بِلَالًا فَأَعْتَقَهُ، ثُمَّ أَعْتَقَ مَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ مِنْ مَكَّةَ سِتَّ رِقَابٍ بِلَالٌ سَابِعُهُمْ»(١).

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «فَكَانَ أُمَيَّةُ يُخْرِجُهُ إِذَا حَمِيَتِ الظَّهِيرَةُ فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِالصَّخْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَتُوضَعُ عَلَى صَدْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: لَا تَزَالُ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ وَتَعْبُدَ اللَّاتَ والْعُزَّى، فَيَقُولُ وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ: أَحَدٌ أَحَدٌ»(٢).

وروى الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ «يعني ابن مسعود» قَالَ: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرُعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ إِنْسَانٌ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالٌ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَأَخَذُوا يَطُوفُونَ بِهِ شِعَابَ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ»(٣).

كما رُوي عن عمرو بن العاص قال: «مررت ببلال وهو يعذَّب في الرمضاء ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى وأمية مغتاظ عليه فيزيده عذاباً حتى يغشى عليه ثم يفيق»(٤)، وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى* لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى* وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى* وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى* وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾(٥)، فالأشقى هو أمية بن خلف والأتقى هو سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ.

❁ عمَّار بن ياسر وأبوه وأمه ﷺ.

عمَّار بن ياسر العَنْسي ﷺ، أبو اليقظان، حليفُ بني مخزوم، وأمُه سُمَيَّة ﷺ مولاةٌ لهم، كانوا من السابقين الأولين، قَالَ ابن إسحاق: كان عمار بن ياسر وأبوه وأمه أهل بيت إسلام، وكان بنو مخزوم يعذبونهم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَبْرًا يَا آلَ

(١) ابن حنبل، الإمام أحمد الشيباني(ت ٢٤١ هـ): فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله مُحَمَّد عباس، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، (١/ ١١٨).

(٢) البيهقي: شعب الإيمان، (٣/ ١٧٢)، الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (ت ٤٣٠هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ /١٩٧٤م،(١/ ١٤٨).

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، (١/ ١٨٢).

(٤) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٢/ ٣٥٧).

(٥) سورة الليل: الآيات ١٤ – ٢١.

يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ»(١)، وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بالْبَطْحَاءِ فَأَخَذَ بِيَدِي، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَمَرَّ بِعَمَّارٍ، وَأَبِي عَمَّارٍ، وَأُمِّ عَمَّارٍ، وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالَ: «صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ»(٢) .

❁ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ ﷺ.

خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُولَى بَنِي زُهْرَةَ، أَسْلَمَ سَادِسَ سِتَّةٍ فَكَانَ سُدُسَ الْإِسْلَامِ. أَسْلَمَ رَاغِبًا، وَهَاجَرَ طَائِعًا، وَعَاشَ مُجَاهِدًا، وَثَبَتَ فِي إِسْلَامِهِ شَاكِرًا، كَانَ مِنَ النَّوَّاحِينَ الْبَكَّائِينَ، وَكَانَتْ نِيَاحَتُهُ عَلَى اكْتِوَائِهِ لِمَا ابْتُلِيَ فِي جِسْمِهِ، وَبُكَاؤُهُ لِافْتِتَانِهِ لِمَا اجْتُمِعَ لَهُ مِنْ سَهْمِهِ، وهو مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالسَّابِقِينَ، وَكَانَ أَحَدَ الْجُلَاسِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وفِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾(٣).

أخذه الكفار وسحبوه على وجهه في رمضاء مكة ليجبروه على الكفر لكنه ثبت، عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: «سَأَلَ عُمَرُ خَبَّابًا عَمَّا لَقِيَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ خَبَّابٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ انْظُرْ إِلَى ظَهْرِي، فَقَالَ عُمَرُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، قَالَ: «أَوْقِدُوا إِلَيَّ نَارًا، فَمَا أَطْفَأَهَا إِلَّا وَدَكُ ظَهْرِي»(٤) .

وعَنِ الشَّعْبِيِّ أيضاً، عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، قَالَ: «لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ إِلَّا أَعْطَى مَا سَأَلُوهُ يَوْمَ عَذَّبَهُمُ الْمُشْرِكُونَ إِلَّا خَبَّابًا، كَانُوا يُضْجِعُونَهُ عَلَى الرَّضْفِ فَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ شَيْئًا»، شَهِدَ خَبَّابٌ ﷺ بَدْرًا، وأُحُدًا، وَالْخَنْدَقَ، وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً»(٥).

❁ عبد الله بن مسعود ﷺ.

قالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدّثَنِي يَحْيَى بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كَانَ أَوّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكّةَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: اجْتَمَعَ يَوْمًا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: وَاَللهِ مَا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجْهَرُ لَهَا بِهِ قَطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمُوهُ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَنَا ؛ قَالُوا: إنّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْك، إنّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنْ الْقَوْمِ إنْ أَرَادُوهُ، قَالَ: دَعُونِي فَإِنّ اللهَ سَيَمْنَعُنِي، قَالَ: فَغَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضّحَى، وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهَا، حَتّى قَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ ثُمّ قَرَأَ «بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ» رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ ﴿الرَّحْمَنُ . عَلّمَ الْقُرْآنَ﴾(٦) قَالَ ثُمّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَؤُهَا، قَالَ فَتَأَمّلُوهُ فَجَعَل يَقُولُونَ مَاذَا قَالَ ابن أم عبد؟ قَالَ: ثُمّ قَالُوا: إنّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمّدٌ فَقَامُوا إلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ فِي وَجْهِهِ وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَبْلُغَ، ثُمّ انْصَرَفَ إلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثّرُوا فِي وَجْهِهِ فَقَالُوا لَهُ:

---

(١) الحاكم: المستدرك، (٣ / ٤٣٢)، رقم الحديث ٥٦٤٦.

(٢) أبو نعيم: معرفة الصحابة، (٥ / ٢٨١٢).

(٣) سورة الأنعام، آية ٥٢.

(٤) الأصبهاني: حلية الأولياء، (١/ ١٤٣).

(٥) الأصبهاني: حلية الأولياء، (١/ ١٤٣، ١٤٤).

(٦) سورة الرحمن: (آية: ١، ٢).

هَذَا الّذِي خَشِينَا عَلَيْك؛ فَقَالَ: مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللهِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمْ الْآنَ وَلَئِنْ شِئْتُمْ لَأُغَادِيَنّهُمْ بِمِثْلِهَا غَدًا؛ قَالُوا: لَا، حَسْبُك، قَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُون» (١).

الثاني: أسلوب الإغراء .

ذكر ابْنُ إسْحَاقَ: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: «حُدِّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ – وَكَانَ سَيِّدًا حَلِيمًا – قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَحْدَهُ فِي الْمَسْجِدِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَلَا أَقُومُ إِلَى هَذَا فَأُكَلِّمُهُ فَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهَا بَعْضَهَا وَيَكُفَّ عَنَّا؟ قَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَقَامَ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِيمَا قَالَ لَهُ عُتْبَةُ وَفِيمَا عَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا فَرَغَ عُتْبَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْمَعْ مِنِّي، قَالَ: أَفْعَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢)، فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا سَمِعَهَا عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا وَأَلْقَى بِيَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ حَتَّى انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ فَسَجَدَ فِيهَا ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ " قَالَ: سَمِعْتُ، قال: فَأَنْتَ وَذَاكَ، فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصحَابِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلَا السِّحْرِ وَلَا الْكَهَانَةِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي خَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَوَاللَّهِ لِيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاَللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ»(٣).

الثالث: أسلوب التحذير.

التحذير الأول : أرسلت قريش وفداً بقيادة أبي سفيان بن حرب ومعه عتبة بن ربيعة، وشيبة، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وعمرو بن هشام «أبو جهل»، والعاص بن وائل وغيرهم، يحذرون أبا طالب فَقَالُوا: «يَا أَبَا طَالِبٍ، إنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ سَبَّ آلِهَتَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَضَلَّلَ آبَاءَنَا، فَإِمَّا أَنْ تَكُفَّهُ عَنَّا، وَإِمَّا أَنَّ تُخَلِّي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَإِنَّكَ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ، فَنَكْفِيكَهُ» فَقَالَ: لَهُمْ أَبُو طَالِبٍ قَوْلًا رَفِيقًا، وَرَدَّهُمْ رَدًّا جَمِيلًا، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ(٤)، لكنهم لاحظوا أن مُحَمَّداً ﷺ ماضٍ في دعوته كما هو وأشد.

(١) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ١٨٦)

(٢) سورة فصلت: (الآيات ١ – ٣) .

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢٩٣/١، ٢٩٤).

(٤) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ١٤٨)، ابن هشام: السيرة النبوية، (٢٩٣/١، ٢٩٤).

التحذير الثاني: أرسلت قريش وفداً جديداً وكلموه بلهجة شديدة حتى يردع مُحَمَّداً فكان مما قَالُوا لَهُ: «يَا أَبَا طَالِبٍ، إِنَّ لَكَ سِنًّا وَشَرَفًا وَمَنْزِلَةً فِينَا، وَإِنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَلَمْ تَنْهَهُ عَنَّا، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا، حَتَّى تَكُفَّهُ عَنَّا، أَوْ نُنَازِلَهُ وَإِيَّاكَ فِي ذَلِكَ، حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ»(١).

التحذير الأخير: وكان مصحوباً بالردع حيث أرسلت قريشاً وفداً أخيراً وأخذوا معهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا حِينَ عَرَفُوا أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَدْ أَبَى خِذْلَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِسْلَامَهُ، وَإِجْمَاعَهُ لِفِرَاقِهِمْ فِي ذَلِكَ وَعَدَاوَتِهِمْ، مَشَوْا إِلَيْهِ بِعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالُوا لَهُ يَا أَبَا طَالِبٍ، هَذَا عُمَارَةُ بْن الْوَلِيدِ، أَنْهَدُ فَتًى فِي قُرَيْشٍ وَأَجْمَلُهُ، فَخُذْهُ وَاتَّخِذْهُ وَلَدًا فَهُوَ لَكَ، وَأَسْلِمْ إِلَيْنَا ابْنَ أَخِيكَ هَذَا، الَّذِي قَدْ خَالَفَ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ، وَفَرَّقَ جَمَاعَةَ قَوْمِكَ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ، فَنَقْتُلَهُ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَبِئْسَ مَا تَسُومُونَنِي! أَتُعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَغْذُوهُ لَكُمْ، وَأُعْطِيكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ! هَذَا وَاللَّهِ مَا لَا يَكُونُ أَبَدًا أفلا تعلمون أن الناقة إذا فقدت ولدها لم تحن إلى غيره»، عندئذٍ أجمعت قريش على أبي طالب يريدون بالنبي ﷺ سوءًا(٢) .

٢- أبو طالب ومُحَمَّد ﷺ .

روى البخاري عن عقيل بن أبي طالب قال: «جَاءَتْ قُرَيشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقالُوا :إِنَّ ابنَ أَخِيكَ هذَا قدْ آذَانا فِي نَادِينا، فَانْهَهُ عنَّا فقال: يا عَقيلُ، ائْتِنِي بِمُحمدٍ، فانْطَلَقَ إليهِ فَاسْتخرجَهُ منْ كِبسٍ، يَقولُ منْ بَيتٍ صَغيرٍ، فَجاءَ بِهِ فِي الظَّهيرةِ، فِي شِدةِ الحرِّ، فَجعلَ يَطلبُ الفَيءَ، يَمشِي فيهِ منْ شِدّةِ حَرِّ الرَّمضاءِ، فلمَّا أَتاهُمْ، قالَ أَبو طَالبٍ: إِنَّ بَنِي، عمِّكَ هَؤلاءِ زَعَموا أَنّكَ تُؤذِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ ومَسجِدِهِمْ، فانْتَهِ عنْ أَذاهُمْ، فَحلَّقَ النبيُّ ﷺ بَصرهُ إلى السَّماءِ، وقالَ: تَرونَ هَذهِ الشَّمسَ؟ قالَ: مَا أَنا بِأَقْدرَ علَى أَنْ أَرُدَّ ذلِكَ مِنكُمْ عَلى أن تُشعِلُوا مِنْها شُعلةً، فَقالَ أَبو طَالبٍ: واللَّهِ، ما كَذبَنا ابنُ أَخِي قَطُّ، فَارجِعُوا»(٣).

وأما ابن إسحاق فيقول: حِينَ قَالَتْ قُرَيْشٌ لِأَبِي طَالِبٍ هَذِهِ الْمَقَالَةَ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ أَخِي إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جاءُونِي فَقَالُوا كَذَا وَكَذَا فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ أَنَا وَلَا أَنْتَ فَاكْفُفْ عَنْ قَوْمِكَ مَا يَكْرَهُونَ مِنْ قَوْلِكَ»، فَظَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيهِ وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «والله يَا

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢٩٣/١، ٢٩٤).

(٢) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ١٥٢)، ابن هشام: السيرة النبوية، (٢٦٦/١، ٢٦٧)، الزرقاني المالكي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن مُحَمَّد (ت ١١٢٢هـ): شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، (١/ ٤٦٣).

(٣) البخاري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ): التاريخ الكبير، تحقيق: مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد الدباسي، المتميز للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، الرياض،١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م، (٨ / ١٠١)، رقم الحديث ٩٤٥١.

عَمِّ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي مَا تَرَكْتُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْ أَهْلِكَ فِي طَلَبِهِ»(١)، ونظراً لأن ابن إسحاق رحمه الله لم يسند هذه الرواية فقد أوردها الألباني رحمه الله في الأحاديث الضعيفة (٢).

وأيما كانت الصيغة إلا أن البيهقي رحمه الله ذكر أن رَسُولُ اللهِ ﷺ بعد هذا الحوار الذي دار بينه وبين عمه اسْتَعْبَرَ وبَكَى، وَلَمَّا وَلَّى قَالَ لَهُ عمه حِينَ رَأَى مَا بَلَغَ به: «يا ابْنَ أَخِي! فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: امْضِ عَلَى أَمْرِكَ وَافْعَلْ مَا أحببت، فو الله لَا أُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا تكرهه»(٣) .

أخبر أبو طالب إخوانه من أبناء عبد المطلب وأبناء عمومته من بني هاشم، وأبناء نسب أبيه عن موقف مُحَمَّد ودعاهم لحمايته فاستجابوا جميعاً إلا أبا لهب، واشتد الأذى بالمسلمين فكانت الهجرة إلى الحبشة.

ويلاحظ أن رسول ﷺ وأصحابه ظلوا يتحملون أذى قريش محتسبين الأجر عند ربهم طوال مدة بقائهم بمكة حتى جعل الله لهم مخرجاً وكانوا صابرين يأمرهم ربهم ونبيهم بالصبر عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(٤) .

(١) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ١٥٤).

(٢) الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، (٢/ ٣١٠).

(٣) البيهقي: دلائل النبوة، (٢/ ١٨٧).

(٤) البخاري: الصحيح، باب علامات النبوة في الإسلام، (٤/ ٢٠١)، رقم الحديث ٣٦١٢.

الهجرة الأولى إلى الحبشة .

لما طال الأذى جميع المسلمين لا سيما الضعفاء، ورأى رَسُول الله ﷺ مَا يُصِيبهم من الْبلَاء والشديد وَمَا هُوَ فِيهِ من الْعَافِيَة بمكانه من الله تَعَالَى وَمن عَمه أبي طَالب، وَأَنه لَا يقدر على أَن يمنعهُم مِمَّا هم فِيهِ من الْبلَاء قَالَ لَهُم: «لَو خَرجْتُمْ إِلَى أَرض الْحَبَشَة فَإِن بهَا ملكا لَا يظلم عِنْده أحد وَهِي أَرض صدق حَتَّى يَجْعَل الله لكم فرجا مِمَّا أَنْتُم فِيهِ فَخرج عِنْد ذَلِك الْمُسلمُونَ من أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ إِلَى أَرض الْحَبَشَة مَخَافَة الْفِتْنَة وفرارا إِلَى الله تَعَالَى بدينهم فَكَانَت أول هِجْرَة فِي الْإِسْلَام»([1]) .

روى ابن كثير عن الْوَاقِدِيُّ قال: «كَانَت هجرتهم إِلَى الْحَبَشَة فِي رَجَب سنة خمس من النُّبُوَّة، وَأَن أول من هَاجر مِنْهُم اثني عشر رجلاً وَأَرْبع نسْوَة وَأَنَّهُمْ انْتَهوا إِلَى الْبَحْر مَا بَين ماش وراكب فاستأجروا سفينة من ميناء الشعيبة بِنصْف دِينَار إِلَى الْحَبَشَة ([2])، وهم عُثْمَان بن عَفَّان وَامْرَأَته رقية بنت رَسُول الله ﷺ وَأَبُو حُذَيْفَة بن عتبَة وَامْرَأَته سهلة بنت سُهَيْل وَالزُّبَيْر بن الْعَوام وَمصْعَب بن عُمَيْر وَعبد الرَّحْمَن بن عَوْف وَأَبُو سَلمَة بن عبد الْأسد وَامْرَأَته أم سَلمَة بنت أبي أُمَيَّة وَعُثْمَان بن مَظْعُون وعامر بن ربيعَة الْعَنزي وَامْرَأَته ليلى بنت أبي حثْمَة وَأَبُو سُبْرَة بن أبي دِرْهَم وحاطب بن عَمْرو وَسُهَيْل بن بَيْضَاء وَعبد الله بن مَسْعُود رَضِي الله تَعَالَى عَنْهُم»([3]).

وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوهم، وكان عدد المهاجرين قليلاً ولكن كان لهجرتهم هذه شأن عظيم في تاريخ الإسلام، فإنها كانت برهاناً ساطعاً على مبلغ إخلاصهم وتفانيهم في احتمال ما يصيبهم في سبيل تمسكهم بعقيدتهم، لكنهم ما لبثوا أن بَلغهُمْ أَن الْمُشْركين أَسْلمُوا فَرَجَعُوا إِلَى مَكَّة فوجدوا الْأَمر بِخِلَاف ذَلِك فلم يسلم إلا حمزة وعمر رضي الله عنهما([4]).

إسلام حمزة رضي الله عنه.

كان إسلام حمزة في السنة السادسة من البعثة النبوية، وذلك أن أبا جهل مرَّ بمحمد ﷺ يومًا عند الصفا، فسبَّه وشتمه وأسمعه ما يكره فأعرض عنه النبي ﷺ ولم يرد عليه بكلمة، وكان حمزة رجلًا قويًا لكنه كان في رحلة صيد فلما رجع من صيده، وعلم بما أصاب ابن أخيه من سفاهة أبي جهل، امتلأ غضبًا وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلمًا على أحد ممن كان عندها، وقصد أبا جهل فهجم عليه من بين جلسائه وقال له: كيف تسب محمدًا وأنا على دينه؟ وضربه بقوسه، فأراد رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل، فمنعهم حسمًا للشر، معترفًا بما وقع منه لمحمد ﷺ، ثم أعلن حمزة إسلامه وعاهد النبي ﷺ على النصرة والتضحية في سبيل الله حتى نهاية حياته([5]).

---

(١) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ١٧٤).

(٢) ابن كثير: الفصول في السيرة، (ص: ١٠١).

(٣) ابن سعد: الطبقات، (١/ ١٧٣).

(٤) ابن كثير: السيرة النبوية، (٢/ ٤) .

(٥) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ١٧١).

إسلام عمر بن الخطاب ﷺ.

أسلم عمر بن الخطاب ﷺ بعد حمزة بعدة أيام، ذكر الإمام أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة: «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَمَّنْ لَا يُتَّهَمُ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، عَنْ أُمِّهِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ ليلى بِنْتِ أَبِي حَثْمَةَ قَالَتْ: وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَنَرْتَحِلُ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ وَقَدْ ذَهَبَ عَامِرٌ(١) فِي بَعْضِ حَاجَتِنَا، إِذْ أَقْبَلَ عُمَرُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيَّ وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ، قَالَتْ: وَكُنَّا نَلْقَى مِنْهُ الْبَلَاءَ أَذًى لَنَا وَشَرًّا عَلَيْنَا، فَقَالَتْ: فَقَالَ: إِنَّهُ لَانْطِلَاقٌ يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَتْ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَاللَّهِ لَنَخْرُجَنَّ فِي أَرْضِ اللَّهِ، آذَيْتُمُونَا وَقَهَرْتُمُونَا، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَنَا مَخْرَجًا، قَالَتْ: فَقَالَ: صَحِبَكُمُ اللَّهُ، وَرَأَيْتُ لَهُ رِقَّةً لَمْ أَكُنْ أَرَاهَا، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ أَحْزَنَهُ فِيمَا أَرَى خُرُوجُنَا، قَالَتْ: فَجَاءَ عَامِرٌ مِنْ حَاجَتِنَا تِلْكَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَوْ رَأَيْتَ عُمَرَ آنِفًا وَرِقَّتَهُ وَحُزْنَهُ عَلَيْنَا، قَالَ: أَطَمِعْتِ فِي إِسْلَامِهِ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: لَا يُسْلِمُ الَّذِي رَأَيْتِ حَتَّى يُسْلِمَ حِمَارُ الْخَطَّابِ، قَالَتْ: يَأْسًا لِمَا كَانَ يَرَى مِنْ غِلْظَتِهِ وَقَسْوَتِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِيمَا بَلَغَنِي أَنَّ أُخْتَهُ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْخَطَّابِ، وَكَانَتْ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، كَانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ وَأَسْلَمَ زَوْجُهَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ مَعَهَا، وَهُمْ يَسْتَخْفُونَ بِإِسْلَامِهِمْ مِنْ عُمَرَ، وَكَانَ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّحَّامُ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ قَدْ أَسْلَمَ، وَكَانَ أَيْضًا يَسْتَخْفِي بِإِسْلَامِهِ فَرَقًا مِنْ قَوْمِهِ(٢)، وَكَانَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ يَخْتَلِفُ إِلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ الْخَطَّابِ يُقْرِئُهَا الْقُرْآنَ، فَخَرَجَ عُمَرُ يَوْمًا مُتَوَشِّحًا سَيْفَهُ يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَهْطًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَذُكِرَ لَهُ أَنَّهُمْ قَدِ اجْتَمَعُوا فِي بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ أَرْبَعِينَ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمُّهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فِي رِجَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ كَانَ أَقَامَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، وَلَمْ يَخْرُجْ فِيمَنْ خَرَجَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَلَقِيَهُ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ مُحَمَّدًا هَذَا الصَّابِئَ الَّذِي قَدْ فَرَّقَ أَمْرَ قُرَيْشٍ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَهَا، وَعَابَ دِينَهَا، وَسَبَّ آلِهَتَهَا، فَأَقْتُلُهُ، فَقَالَ لَهُ نُعَيْمٌ: وَاللَّهِ، لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ مِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ، أَتَرَى بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ تَارِكِيكَ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟ أَفَلَا تَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِكَ فَتُقِيمَ أَمْرَهُمْ؟ قَالَ: وَأَيُّ أَهْلِ بَيْتِي؟ قَالَ: خَتَنُكَ وَابْنُ عَمِّكَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَأُخْتُكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ، فَقَدْ أَسْلَمَا وَتَابَعَا مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى دِينِهِ، فَعَلَيْكَ بِهِمَا، فَرَجَعَ عُمَرُ عَامِدًا لِخَتَنِهِ وَأُخْتِهِ، وَعِنْدَهُمَا خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ مَعَهُ صَحِيفَةٌ فِيهَا طَهَ يُقْرِئُهُمَا إِيَّاهَا، فَلَمَّا سَمِعُوا حَسَّ عُمَرَ تَغَيَّبَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ فِي مَخْدَعٍ لِعُمَرَ أَوْ فِي بَعْضِ الْبَيْتِ، وَأَخَذَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ الصَّحِيفَةَ فَجَعَلَتْهَا تَحْتَ فَخِذِهَا، وَقَدْ سَمِعَ عُمَرُ حِينَ دَنَا مِنَ الْبَيْتِ قِرَاءَتَهُ عَلَيْهِمَا،

---

(١) أسلم عامر بن ربيعة قديماً قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وقبل أن يدعو فيها، هاجر عامر بن ربيعة إلى أرض الحبشة الهجرتين، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة العدوية أخت سليمان بن أبي حثمة، وآخى رسول الله ﷺ بين عامر بن ربيعة، ويزيد بن المنذر بن شريح الأنصاري وكان عامر يكنى: أبا عبد الله، شهد بدراً وأحداً والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وتوفي بعدما قتل عثمان ﷺ. الحاكم: المستدرك، (٣/ ٤٠٣)، رقم الحديث ٥٥٣٣.

(٢) فَرَقًا: الْفَرَقُ هو الْخَوْفُ. الحربي، إبراهيم بن إسحاق أبو إسحاق (ت: ٢٨٥): غريب الحديث، تحقيق: سليمان إبراهيم مُحَمَّد العايد، جامعة أم القرى، ط١، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ، (٢/٣٤٩).

فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: مَا هَذِهِ الْهَيْنَمَةُ(١) الَّتِي سَمِعْتُهَا؟ قَالَا: مَا سَمِعْتَ شَيْئًا، قَالَ: بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ أُخْبِرْتُ عَمَّا تَابَعْتُمَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ، وَبَطَشَ بِخَتَنِهِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَقَامَتْ إِلَيْهِ فَاطِمَةُ أُخْتُهُ لِتَكُفَّهُ عَنْ زَوْجِهَا، فَضَرَبَهَا فَشَجَّهَا(٢)، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ وَخَتَنُهُ: نَعَمْ، قَدْ أَسْلَمْنَا وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ. وَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بِأُخْتِهِ مِنَ الدَّمِ نَدِمَ عَلَى مَا صَنَعَ فَارْعَوَى وَقَالَ لِأُخْتِهِ: أَعْطِينِي هَذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِي سَمِعْتُكُمْ تُقْرَآنِ آنِفًا أَنْظُرْ مَا هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ؟ وَكَانَ عُمَرُ كَاتِبًا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ: إِنَّا نَخْشَاكَ عَلَيْهَا، قَالَ: لَا تَخَافِي، وَحَلَفَ لَهَا بِآلِهَتِهِ لَيَرُدَّنَّهَا إِلَيْهَا إِذَا قَرَأَهَا، فَلَمَّا قَالَ لَهَا ذَلِكَ طَمِعَتْ فِي إِسْلَامِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَخِي، إِنَّكَ نَجِسٌ عَلَى شِرْكِكَ، وَإِنَّهُ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا الطَّاهِرُ، فَقَامَ عُمَرُ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ أَعْطَتْهُ الصَّحِيفَةَ، وَفِيهَا طَهَ، فَقَرَأَهَا، فَلَمَّا قَرَأَ صَدْرًا مِنْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَكْرَمَهُ فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابٌ ذَلِكَ خَرَجَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا عُمَرُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ خَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَيِّدِ الْإِسْلَامَ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» ، فَاللَّهَ اللَّهَ يَا عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ: فَادْلُلْنِي عَلَيْهِ يَا خَبَّابُ حَتَّى آتِيَهُ فَأُسْلِمَ، فَقَالَ لَهُ خَبَّابٌ: هُوَ فِي بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا، مَعَهُ فِئَةٌ، يَعْنِي مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَخَذَ عُمَرُ سَيْفَهُ فَتَوَشَّحَهُ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَرَآهُ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فَزِعٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ، فَقَالَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: فَائْذَنْ لَهُ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ خَيْرًا بَذَلْنَا لَهُ، وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ شَرًّا قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ائْذَنْ لَهُ» ، فَأَذِنَ لَهُ الرَّجُلُ وَنَهَضَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى لَقِيَهُ فِي الْحُجْرَةِ، فَأَخَذَ بِحُجْزَتِهِ أَوْ بِجُمْعِ رِدَائِهِ، ثُمَّ جَبَذَهُ جَبْذَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بِكَ قَارِعَةً»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُكَ أُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ: فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَكْبِيرَةً عَرَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُمَرَ قَدْ أَسْلَمَ، فَتَفَرَّقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَانِهِمْ ذَلِكَ وَقَدْ عَزُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ حِينَ أَسْلَمَ عُمَرُ مَعَ إِسْلَامِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمَا سَيَمْنَعَانِ رَسُولَ اللَّهِ، وَيَنْتَصِفُونَ بِهِمَا مِنْ عَدُوِّهِمْ. فَهَذَا حَدِيثُ الرُّوَاةِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَنْ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ أَسْلَمَ ﷺ(٣).

وفي رواية: أن عمر ﷺ حِينَ سَمِعَ الْقُرْآنَ، وَقَعَ فِي نَفْسِهِ الْإِسْلَامُ فَلَمَّا أَمْسَى انْطَلَقَ حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وهُوَ يُصَلِّي وَيَجْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ، فَسَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقْرَأُ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾(٤) وَسَمِعَهُ يَقْرَأُ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾(٥) قَالَ: فَانْتَظَرَ عُمَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حتَّى

---

(١) الهَيْنَمَةُ: الصوت الخفيّ. ابن فارس، أحمد بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، (٦ / ٧٠).

(٢) الشَّجُّ: جُرح في الوجه، أو الرَّأس، أو الجبين. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، (١١٦٦/٢).

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، (١/ ٢٧٩)، رقم الحديث ٣٧١.

(٤) سورة العنكبوت: الآيات ٤٨، ٤٩.

(٥) سورة الرعد: الآية ٤٣.

سَلَّمَ مِنْ صَلَاتِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ فَأَسْرَعَ عُمَرُ الْمَشْيَ فِي أَثَرِهِ حِينَ رَآهُ فَقَالَ: انْظُرْنِي يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ» فَقَالَ عُمَرُ : انْظُرْنِي يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَانْتَظَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فآمَنَ بِهِ عُمَرُ وَ صَدَّقَهُ(١).

أثر إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما.

كان إسلامهما نصراً من الله لنبيه وللمسلمين حيث عاهدا الرسول ﷺ على النصرة والتضحية في سبيل الله حتى الموت، وقد تألمت قريش وأصابها كرب عظيم بإسلامهما، فقد عرفت أن رسول الله ﷺ عزَّ وامتنع بإسلام هذين البطلين، روى البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: «مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ»(٢)، وقال أيضاً: «مَا كُنَّا نَقْدِرُ أَنْ نُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمَّا أَسْلَمَ قَاتَلَ قُرَيْشًا حَتَّى صَلَّى عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ»، وفي رواية قال: «مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ، وَاللَّهِ لَوْ رَأَيْتَنَا وَمَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُصَلِّيَ بِالْكَعْبَةِ ظَاهِرِينَ، حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى تَرَكُونَا فَصَلَّيْنَا»(٣).

ومما قاله ابن عباس رضي الله عنهما لعمر بن الخطاب ﷺ: لَمَّا طُعِنَ: «فَلَمَّا أَسْلَمْتَ كَانَ إِسْلَامُكَ عِزًّا، وَأَظْهَرَ اللهُ بِكَ الْإِسْلَامَ وَرَسُولَ اللهِ وَأَصْحَابَهُ، وَهَاجَرْتَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَكَانَتْ هِجْرَتُكَ فَتْحًا، ثُمَّ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ»(٤)، ولا يخفى على ذي عقل أن ذلك كان بسبب قوته في الحق وشجاعته ﷺ فهو الذي لم يرض أن يستخفي كما يستخفي الضعفاء، بل أصرَّ على إظهار إسلامه، والجهر بصلاته، ومع أن إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما كان فتحاً ونصراً للمسلمين إلا أن قريشاً هاجت واتبعت سياسة العنف والتعذيب ضد المسلمين لا سيما العبيد والمستضعفين ممن تحت أيديهم فأمرهم النبي بالهجرة الثانية إلى بلاد الحبشة.

---

(١) الصنعاني: المصنف، (٦/ ١٣-١٤)، رقم الحديث ١٠٥٦٠.

(٢) البخاري: الصحيح، باب مناقب عمر بن الخطاب، (٥/ ١١)، رقم الحديث ٣٦٨٤.

(٣) ابن سعد: الطبقات، (٢٦٩/٣)، وفي سنده الواقدي وهو متروك.

(٤) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت ٣٦٠هـ): المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، (١٠/ ٢٦٦).

الهجرة الثانية إلى بلاد الحبشة.

لما عاد أصحاب النبي ﷺ من الهجرة الأولى «بسبب إسلام حمزة وعمر» اشتد عليهم قومهم، وسَطَتْ بهم عشائرهم ولقوا منهم أذىً شديداً فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى بلاد الحبشة للمرة الثانية وكان عددهم ثلاثةٌ وثمانون رجلاً، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبعاً غرائب، فأقاموا بأرض الحبشة عند النجاشي في أحسن جوارٍ فلما سمعوا بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً ومن النساء ثماني نسوة، فمات منهم رجلان، وحبس سبعة بمكة وشهد أربعة وعشرون رجلاً منهم بدراً(١).

قريش تحاول أن تفسد على المسلمين مهجرهم في الحبشة.

لم يعجب قريش أن يخرج هؤلاء المسلمون من بين أيديهم ويستقروا آمنين في بلاد الحبشة فأرسلوا وفداً يحاول ردهم للتعذيب في مكة أو يفسد عليهم مهجرهم بالوقيعة بينهم وبين النجاشي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ ثَمَانُونَ رَجُلًا وَمَعَنَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ عُمَارَةَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَبَعَثُوا مَعَهُمَا هَدِيَّةً إِلَى النَّجَاشِيِّ فَلَمَّا دَخَلَا عَلَيْهِ سَجَدَا لَهُ وَدَفَعَا إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ، وَقَالَا: إِنَّ نَاسًا مِنْ قَوْمِنَا رَغِبُوا عَنْ دِينِنَا وَقَدْ نَزَلُوا أَرْضَكَ قَالَ: فَأَيْنَ هُمْ؟ قَالُوا: هُمْ فِي أَرْضِكَ فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ النَّجَاشِيُّ قَالَ: فَقَالَ جَعْفَرٌ: أَنَا خَطِيبُكُمُ الْيَوْمَ فَاتَّبَعُوهُ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى النَّجَاشِيِّ فَلَمْ يَسْجُدُوا لَهُ فَقَالَ: مَالَكُمْ لَا تَسْجُدُونَ لِلْمَلِكِ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ إِلَيْنَا نَبِيَّهِ ﷺ فَأَمَرَنَا أَنْ لَا نَسْجُدَ إِلَّا لِلَّهِ، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ: وَمَا ذَاكَ؟ فَأُخْبِرَ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: إِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي عِيسَى، قَالَ: فَمَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى وَأُمِّهِ؟ قَالَ: نَقُولُ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ الَّتِي لَمْ يَمْسَسْهَا بَشَرٌ وَلَمْ يَفْرِضْهَا وَلَدٌ، فَتَنَاوَلَ النَّجَاشِيُّ عُودًا فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ مَا تَزِيدُونَ عَلَى مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ مَا يَزِنُ هَذِهِ، فَمَرْحَبًا بِكُمْ وَبِمَنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ فَأَنَا أَشْهَدُ لَهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي عِنْدَهُ فَأَحْمِلُ نَعْلَيْهِ أَوْ قَالَ: أَخْدُمُهُ، فَانْزِلُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَرْضِي فَجَاءَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَبَادَرَ فَشَهِدَ بَدْرًا»(٢).

وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾(٣) .

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، (٣/ ٢٣).

(٢) أبو داود الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود (ت ٢٠٤ هـ): مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق: مُحَمَّد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط ١، القاهرة، ١٤١٩هـ /١٩٩٩م، (١/ ٢٧٠)، البيهقي: دلائل النبوة، (٢/ ٢٩٨).

(٣) سورة المائدة: الآيات ٨٣ – ٨٤.

حصار بني هاشم في الشعب.

١- سبب الحصار.

بعدما أَسْلَمَ حمزة وعمر وغيرهم، وَفَشَا الْإِسْلَامُ بمكة ورَأَتْ قُرَيْشٌ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَعْلُو وَالْأُمُورُ تَتَزَايَدُ وبلغهم ما فعل النجاشي بالقادمين عليه وإكرامه لهم، ساءهم ذلك كله فاتفقوا على أسلوب جديد في مجابهة الإسلام وهو أسلوب الحصار والمقاطعة وذلك بأن كتبوا بينهم كتاباً تعاقدوا فيه على حصار بني هاشم وبني المطلب ومقاطعتهم بألا يناكحوا ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم مُحَمَّداً ﷺ ليقتلوه، وكتبوا بذلك صحيفة وختموا عليها ثلاثة خواتيم، وعلقوها في سقف الكعبة([1]).

أعنى أنهم اتفقوا وتعاهدوا على مقاطعتهم مقاطعة تامة انتقاماً منهم لإسلامهم ودفاعهم عن رسول الله ﷺ وكتبوا الصحيفة توكيداً لأنفسهم وعلقوها في جوف الكعبة، فتضامنوا جميعاً وصبروا مؤمنهم وكافرهم إلا أبو لهب فقد خرج إلى قريش وظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب.

٢- تاريخ الحصار ومدته.

كتب المشركون الصحيفة وبدأ الحصار في مستهل المحرم سنة سبع من النبوة، وأقاموا على ذلك ثلاث سنين قطعوا عنهم الطعام والشراب وحبسوهم فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد وسُمِعَ أصواتُ صبيانهم من وراء الشِّعب، وأنفق رسول الله ﷺ ماله، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة مالها وصاروا إلى حد الضر والفاقة([2]).

(١) ابن القيم: زاد المعاد، (٣/ ٢٦)؛ المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (ت ٨٤٥هـ): إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: مُحَمَّد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م، (١/ ٤٣).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، (١/ ٨٦)؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/ ٤٤).

٣- أسباب فك الحصار.

ثم أطلع الله رسوله ﷺ على أمر صحيفتهم وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من كلمات الجور والظلم، وبقي ما كان فيها من ذكر الله، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب، فقال أبو طالب لكفار قريش: «إن ابن أخي أخبرني ولم يكن يكذبني قط أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم وبقي فيها كل ما فيه ذكر الله فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم وإن كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتموه»(١).

قالوا قد أنصفتنا فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها فإذا هي كما أخبر رسول الله ﷺ فسقط في أيديهم ونكسوا على رءوسهم، ثم سعى أناس من قريش ممن كرهوا هذا الظلم ولم يقبلوه في نقض الصحيفة منهم مطعم بن عدي، وعدي بن قيس، وزمعة بن الأسود، وأبو البَخْتَرِي بن هشام، وزهير بن أبي أمية ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة من البعثة قبل موت أبي طالب بستة أشهر(٢).

(١) نقل ابن كثير رواية أخرى خلاف ذلك فقال: فَأَكَلَتِ اسْمَ اللَّهِ مِنْهَا تَنْزِيهًا لَهَا أَنْ تكون مع الذين فِيهَا مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، ومهما يكن الأمر فقد أطلع الله نبيه على أمر الصحيفة فَأَقْلَعَتْ قُرَيْشٍ عما كانوا عَلَيْهِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ، وَهَدَى اللَّهُ بِذَلِكَ خَلْقًا كَثِيرًا. ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ): معجزات النبي ﷺ (من كتاب البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق وتعليق: السيد إبراهيم أمين مُحَمَّد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت)، (ص: ٤٩٦).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، (٣/ ٢٨)؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/ ٤٤) .

وفاة أبي طالب وخديجة.

وعقب ذلك مات أبو طالب في منتصف شوال من العام العاشر بعد البعثة، وقيل: في أوّل ذي القعدة، ولرسول الله من العمر تسع وأربعين سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً(١)، كما توفيت أم المؤمنين خديجة ﵂ في العام نفسه قبل الهجرة بثلاث سنين(٢)، بعد أبي طالب بثلاثة أيام وقيل بأكثر من ذلك، ولها نحواً من ستين سنة وكان مقامها مع رسول الله ﷺ بعد ما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر، ودفنها رسول الله ﷺ بالحجون ولم تكن الصلاة على الجنائز يومئذ قد فرضت وحزن عليها النبي ﷺ ونزل في حفرتها وتتابعت على رسول الله ﷺ بموت أبي طالب وخديجة المصائب؛ لأنهما كانا من أشد المعضدين له المدافعين عنه فأشتد أذى قريش عليه حتى نثر بعض أشقيائهم التراب على رأسه الشريف، وطرح بعضهم عليه سلى الشاة وهو يصلي قال عن ذلك: «ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»(٣).

أثر وفاة أبي طالب وخديجة.

تأثر رسول الله ﷺ كثيراً بموت عمه وزوجه وتأسف على فراقهما، قال ابن إسحاق: «ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها، وبهلك عمه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعةً وناصراً على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين. فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً»، قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، قال: «لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه فاطمة، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: لَا تَبْكِي يَا بُنَيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعٌ أَبَاكَ. قَالَ: وَيَقُولُ بَيْنَ ذَلِكَ: مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ، حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ»(٤).

ثم خرج النبي ﷺ ليبحث للدعوة عن أرض جديدة وأنصار آخرين فكانت رحلته للطائف.

---

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/ ٤٥) .

(٢) كما ورد في الصحيح عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ بِثَلاَثِ سِنِينَ، فَلَبِثَ سَنَتَيْنِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، وَنَكَحَ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، ثُمَّ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ»، البخاري: الصحيح، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، (٥/ ٥٦)، رقم الحديث ٣٨٩٦.

(٣) ابن سيد الناس، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أحمد اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (ت: ٧٣٤هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم مُحَمَّد رمضان، دار القلم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م، (١/ ١٥١).

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، (٤١٦/١).

رحلة النبي ﷺ إلى الطائف.

تجرأت قريش على النبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب وكاشفوه بالأذى، فتوجه إلى الطائف ماشياً لثلاث بقين من شوال سنة عشر من المبعث ومعه مولاه زيد بن حارثة ﷺ واختار الطائف لقربها من مكة ومعرفتهم بها ولقوة قبائلها فذهب يدعو ثقيفاً إلى الإسلام ويلتمس منهم النصرة والمنعة من قومه([1]).

١- رد ثقيف القبيح له ﷺ.

أقام النبي ﷺ في بلاد الطائف نحواً من عشرة أيام يدعوهم فلم يدع أحداً من أشراف ثقيف إلا جاءه ودعاه إلى الله، وكان ممن قابلهم ثلاثة من سادة ثقيف هم: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير، فقال أحدهم: «عن نفسه لأُمَزِّقَنَّ ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الثاني: أما وجد الله أحداً غيرك يرسله، وأما الثالث فقال: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك»([2])، ونالوا منه ما لم تنله منه قريش حيث أغروا سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، ويَرْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى دَمِيَتْ قَدَمَاهُ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَقِيهِ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَصَابَهُ شِجَاجٌ فِي رَأْسِهِ، فَانْصَرَفَ ﷺ فأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ فصلى رَكْعَتَيْنِ ثمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اليك أشكوا ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ إِلَى مَنْ تَكِلُنِي إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي([3]) أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بك»([4]).

فلما رأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة ما لقي رسول الله ﷺ تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عَدَّاس فقالا له أعطه قطفاً من عنب يأكل منه ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فلما وضع يده قال: بسم الله فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلدة، قال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت وما دينك، قال: أنا نصراني من نِينَوى، فقال له رسول الله ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى؟ قال له: وما

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، (٣/ ٢٩).

(٢) السهيلي: الروض الأنف، (٤/ ٢٤).

(٣) يَتَجَهَّمُنِي: أي يَلْقانِي بالغِلْظَة والوَجْه الكَرِيه. الزَّبيدي: تاج العروس، (٣١/ ٤٣١).

(٤) المقدسي: الأحاديث المختارة، (٩/ ١٨١)؛ وهذا الأثر: أخرجه ابن إسحاق، ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ٢٦٠)، وقال الهيثمي: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ ابْنُ إِسْحَاقَ وَهُوَ مُدَلِّسٌ ثِقَةٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ. مجمع الزوائد، رقم (٩٨٥١)، وضعفه الألباني في تعليقه على فقه السيرة، للغزالي، (ص:١٢٦).

يدريك ما يونس بن متَّى؟ قال رسول الله ﷺ: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبيٌّ، فأكبَّ(١) عدّاس على رسول الله ﷺ يُقَبِّل رأسه ويديه ورجليه(٢).

فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له ويلك يا عداس مالك تُقَبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه، قال يا سيدي ما في الأرض خيرٌ من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبيٌّ، فقالا ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه»(٣).

٢- مجيء ملك الجبال عليه السلام إلى النبي ﷺ يستأمره وشفقته على قومه.

عاد النبي ﷺ من الطائف فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ قَرْنِ الثَّعَالِبِ(٤) أرسل الله تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة – وهما جبلاها التي تقع بينهما- فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «بل أرجو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبدُ اللَّهَ، لا يشركُ بِهِ شيئًا»(٥).

٣- عودته ﷺ إلى مكة ودخوله في جوار مطعم بن عدي.

ثم أن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة فلما نزل بوادي نخلة قام يصلي من الليل ويتلو القرآن، فصرف الله إليه نفراً من الجن، فاستمعوا قراءته ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٦)، وأقام بنخلة أياماً فقال له زيد بن حارثة رضي الله عنه :كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ – يعني قريشاً – فقال «يا زيد إنَّ الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرٌ دينه ومظهرٌ نبيه» (٧).

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى مكة منعه المشركون من الدخول فأرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي يسأله أأدخل في جوارك؟ فقال نعم، ودعا المطعم بنيه وقومه فقال البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت مُحَمَّداً، فلا يهجه

---

(١) أكبَّ على العلم: أقبل عليه وشُغل به ولازَمه واجتهد فيه، وأكبَّ على القضيَّة: أبدى اهتمامًا زائدًا بها، وأكبَّ على وجهه :سقَط، انقلب، انحنى. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، (٣/ ١٨٩٢).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ٤٢١).

(٣) البيهقي: دلائل النبوة، (١/ ٦٨)

(٤) ابن كثير: معجزات النبي ﷺ، (ص: ٣٩٤). وقرن الثعالب أو قرن المنازل هو اسْمُ الموضع الذي يُحرِم مِنْهُ أَهْلُ نَجْد على بعد ٨٠ كم من مكة. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٤/ ٥٢).

(٥) مسلم: صحيح مسلم، (٣/١٤٢٠)، رقم الحديث ١٧٩٥.

(٦) سورة الأحقاف: الآيات ٢٩- ٣٢.

(٧) ابن القيم: زاد المعاد، (٣/ ٣٠).

أحد فانتهى النبي ﷺ إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، ثم انصرف إلى بيته والمطعم بن عدي وولده محدقون به في السلاح حتى دخل بيته(١) .

(١) الدِّيار بَكْري، حسين بن مُحَمَّد بن الحسن (ت ٩٦٦هـ): تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٠هـ /١٩٧٣م، (١/ ٣٠٣).

الإسراء والمعراج.

١ – تاريخه وذكر أحداثه.

اختلفوا في تاريخ وقوع الإسراء والمعراج فقيل في السابع والعشرين من ربيع الأول بعد المبعث بعشر سنين أو إحدى عشرة أو ثنتي عشرة سنة، وقيل ربيع الآخر، وقيل لسبع عشرة خلت من رمضان، وقيل ليلة السابع والعشرين من رجب وبه جزم النووي في الروضة واختاره الحافظ المقدسي، وكان سِنُّه ﷺ حينها ٥٠ وقيل ٥٢ سنة(١).

وقد أُسريَ به ﷺ، من الْمَسْجِد الْحَرَام إِلَى الْمَسْجِد الْأَقْصَى، ومنه عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوات العلى، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢)، وقد رأى رسول الله ﷺ، في هاتين الرحلتين من عجائب آيات الله ما يعجز البشر عن رؤيته وحدهم ومن ذلك بلوغه إِلَى سِدْرَة المنتهى؛ إِلَى مستوىً سمِعَ فِيهِ صَرِيفَ الأقلام، في مكان لم يصله نبي مرسل ولا ملك مقرب وهناك رأى جبريل في صورته الملائكية؛ له ستمائة جناح وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾(٣)، وكلَّمه ربُّه وأعطاه ما أعطاه، وفُرض عَلَيْهِ وعَلى أُمَّته الصَّلَوَات الْخمس.

وَكذا اخْتلف الْعلمَاء فِي كيفية الْإِسْرَاء والمعراج، هَل كَانَا فِي لَيْلَة وَاحِدَة، أَوْ لَا، وأيُّهما كَانَ قبل الآخر، وَهل كَانَ ذَلِك كلُّه فِي الْيَقَظَة أَم فِي الْمَنَام، أَو كَانَ بعضه فِي الْيَقَظَة، وَبَعضُه فِي الْمَنَام، وَالْقَوْل الصواب أنه ﷺ أُسريَ به ثمَّ عُرِجَ به بروحه وجسده يقظة لا مناماً، ورأى ربه رؤية يعلم الله كيفيتها(٤)، وقد سبقهما شق صدره ﷺ كما هو ثابت بالكتاب والسنة(٥).

روى البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ

---

(١) القسطلاني: المواهب اللدنية، (١/ ١٦٢).

(٢) سورة الإسراء: (آية : ١).

(٣) سورة النجم: الآيات: (١٣– ١٤).

(٤) ذهب البعض أنه ﷺ رأي ربه بعيني رأسه، ولما سئلت عنها عائشة قالت: كَذَبَ: مَن حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رَأَى رَبَّهُ فقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٠٣]، {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الشورى: ٥١]. رواه البخاري، رقم الحديث ٤٨٥٥.

(٥) صالح عبد الواحد: سبل السلام، (١/ ١٨٩).

شِمَالِهِ بَكَى، حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُ فَفَتَحَ. قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَاوَاتِ آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا عِيسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ»، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولَانِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ»، قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ، حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعَنِي فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ :ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ»(١).

٢- تكذيب قريش وتصديق أبي بكر ﷺ.

ولما عاد رسول الله ﷺ وأخبر قومه بما حدث له صدَّقه أبو بكر الصديق، وكل من آمن بالله، وكذَّبه الكفار وطلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس، فمثَّله الله له، فجعل ينظر إليه ويصفه(٢)، روى البخاري من حديث جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَا اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»(٣).

والجدير بالملاحظة أن مسراه ﷺ كان فيه من البلاء والتمحيص للمؤمنين لقياس قوة إيمانهم وتصديقهم، وفيه بيان أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه، وعبرة لأولي الألباب، فأسرى به ربه كيف شاء وكما شاء وقت ما شاء، ليريه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمر الله عز وجل وسلطانه العظيم، وقدرته التي صنع بها سبحانه ما يريد(٤).

---

(١) البخاري: الصحيح، باب حديث الإسراء، (٧٨/١)، رقم الحديث ٣٤٩.

(٢) القسطلاني: المواهب اللدنية، (١/ ١٦١).

(٣) البخاري: الصحيح، باب حديث الإسراء، (٥٢/٥)، رقم الحديث ٣٨٨٦.

(٤) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ٢٩٥).

بدأ إسلام الأنصار وبيعتا العقبة الأولى والثانية.

١– أول لقاء له ﷺ بالأنصار.

أَقَامَ رَسُول الله ﷺ بعد العودة من الإسراء والمعراج يَدْعُو الْقَبَائِل إِلَى الله، ويَعرض نفسَه عَلَيْهِم كلَّ سنةٍ فِي المواسم أنْ يؤوه، حَتَّى يبلِّغ رِسَالَة ربّه وَلَهُم الجَنَّة، لَم تستجبُ لَهُ قبيلةٌ من الْعَرَب، حَتَّى أَرَادَ الله إظهارَ دينه، وَنصر نبيّه وإنجازَ مَا وَعَدَه، فساقه إِلَى هَذَا الحيّ من الْأَنْصَار، لِما يُرِيد اللهُ بهم من الكرَامة، فَانْتهى إِلَى ستة نفر مِنْهُم عِنْد العَقبة فِي الْمَوْسِم، وهم يَحلِقون رؤوسَهم، فَجَلَسَ إِلَيْهِم، ودَعَاهُمْ إِلَى الله عزَّ وجلَّ وَقَرَأَ عَلَيْهِم الْقُرْآن، فَقَالَ بَعضهم لبعضٍ: إنّه النبيّ الَّذِي تُوعِدُكم بِهِ يهود، فَلَا يَسبِقُنَّكم إِلَيْهِ، فاستجابوا لله وَلِرَسُولِهِ، فآمنوا بِهِ، وصدّقوا، وهم أسعد بن زُرَارة، وعَوْف بن الحارِث، ورافع بن مالك، وقُطبَة بن عامر بن حديدة، وعُقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد اللهرضي الله عنهم ، ثم قدمُوا الْمَدِينَة فدَعَوْا إِلَى الْإِسْلَام حَتَّى فَشَا فِيهَا، وَلم يَبقَ دارٌ من دُور الْأَنْصَار إلاّ وفيهَا ذِكرٌ من رَسُول الله ﷺ (١).

٢– بيعة العقبة الأولى: تاريخها وعدد أفرادها وبنودها.

ثمَّ فِي الْعَام الْقَابِل (الثاني عشر من البعثة) لقِيه ﷺ اثْنَا عشر رجلاً من الْأَنْصَار عِنْد الْعقبَة، عشرَة من الْخَزْرَج منهم أسعَد بن زرَارة، وعُبَادةَ بن الصَّامت، وَمن الْأَوْس رجلَانِ، فأسلموا وَبَايَعُوا على بَيْعَة النِّساء(٢)، روى البخاري من حديث عبادة بن الصامترضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُونَ بِبُهْتَانٍ، تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهْوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ قَالَ :فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ»(٣).

ثمَّ انصرفوا إِلَى الْمَدِينَة، وَبعث مَعَهم رسولُ الله ﷺ مصعب بن عُميْر يُعلّم مَنْ أسلم، وَيَدْعُو إِلَى الله مَنْ لم يُسلم، فَنزل بِالْمَدِينَةِ على أسعد بن زُرارة، وكَانَ يُقرئهم الْقُرْآن، وَأسلم على يَديْ مُصعبٍ خلْقٌ كثير من الْأَنْصَار، مِنْهُم أُسَيْد بن حُضَيْر ثمَّ سعد بن مُعاذ فِي يَوْم وَاحِد. وَقَالَ سعدٌ لِقَوْمِهِ بني عبد الْأَشْهَل فِي الْيَوْم الَّذِي أسلم فِيهِ: كلامُ رِجالِكم ونسائِكم عليَّ حرامٌ إنْ لم تؤمنوا بِاللَّه وَرَسُوله فآمنوا كلُّهم، الرجالُ والنساءُ، فِي ذَلِك الْيَوْم (٤) .

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، (١/ ٩٧، ٩٨).

(٢) أي وفق بيعة النساء التي نزلت بعد ذلك عند فتح مكة وذكرها الله في سورة الممتحنة بقوله:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ،وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ،فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢)، القسطلاني: المواهب اللدنية، (١/ ١٦٥).

(٣) البخاري: الصحيح، باب وفود الأنصار إلى النبي وبيعة العقبة، (٥/٥٥)، رقم الحديث ٣٨٩٢. والاستدلال برواية البخاري على أن هذه البنود كانت في بيعة العقبة الأول فيها نظر. يراجع: ابن حجر: فتح الباري، (١/٦٦).

(٤) الكاندهلوي، مُحَمَّد يوسف، حياة الصحابة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت – لبنان، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م، (١/ ٢٢١).

٣- بيعة العقبة الثانية: تاريخها وعدد أفرادها وبنودها.

ولما كثر الإسلام في المدينة وَظَهَرَ رَجَعَ مصعب إِلَى مَكَّةَ يبشر النبيﷺ بذلك ويخبره أن وفداً كبيراً سيفد عليه في موسم ذلك الْعَامَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ والمشركين، فلما قدمُوا على رَسُول الله ﷺ وكانوا نحواً من سبعين رجلاً وامرأتين سلَّموا عَلَيْهِ فواعدهم مِنىً وسط أيّام التَّشْرِيق، إذا هدأت الرِجْل، روى الإمام أحمد من حديث كعب بن مالك ﷺ قال: «فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقُ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ، فَقَالَ :يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا، إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، قَالَ: فَقُلْنَا قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ، وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَتَلَا وَدَعَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ: « أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ . قَالَ: فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا(١)، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، قَالَ :فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ، وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَقَالَ :يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا - يَعْنِي الْعُهُودَ - فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ، وَتَدَعَنَا؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ(٢)، أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ»(٣).

ولما بايعوه اختار منهم اثْنَيْ عشرَ نَقِيبًا، وقَالَ لهم: «أَنْتُم كُفَلاء على غَيْرِكُمْ، كَكَفالة الحواريّين لعيسى بن مَرْيم، وَأَنا كفيلٌ على قومِي؟ " قَالُوا: نعم. وَانْصَرفُوا إِلَى رِحالهم، وَقد طابت نفس رَسُول الله ﷺ إِذْ جعل اللهُ لَهُ مَنَعةً وقوماً أهلَ حَربٍ وعُدَّةٍ ونَجدةٍ»(٤).

---

(١) جمع إزار، والمقصود أَنْفُسُنَا وَنِسَاءُنَا، وفي رواية أخرى ذارينا أي صغار وضعاف أبنائنا. الخطابي، حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن الخطاب البستي أبو سليمان (ت ٣٨٨ هـ): غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م، (١٠١/٢).

(٢) الدَّمَ الدَّمَ: أَي حرمتي مَعَ حرمتكم فطالبُ دمكم طالبٌ دمي، وَالْهَدْمَ هو القبر، أي: أُقبر حيث تُقْبرون، وقيل: هو البيت، أي: بيتي مَعَ بَيتكُمْ، نحو: المحيا محياكم والممات مماتكم أعيش معكم وأموت وأقبر بينكم، وفيه دليل على استحكام الألفة بينهم، وقد وفَّى رسول الله ﷺ لهم. الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو مُحَمَّد (ت ٢٧٦هـ): غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ، (٣٠٤/١).

(٣) أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ): المسند، (٢٥/ ٩٣)، رقم الحديث: ١٥٧٩٨.

(٤) علي بن إبراهيم الحلبي (ت: ١٠٤٤هـ): السيرة الحلبية، (٢/ ٢٣)؛ ابن عبد الوهاب النجدي، الشيخ مُحَمَّد (ت: ١٢٠٦هـ): مختصر زاد المعاد، دار الريان للتراث، ط٢، القاهرة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، (ص: ١٢٣).

الهِجرةُ إِلَى الْمَدِينَة ووصوله إلى قباء.

لما رَجَعَ الْأَنْصَار إِلَى الْمَدِينَة اشتدَّ البلاءُ على الْمُسلمين في مكة، حيث ضيَّق المشركون عَلَيْهِم، ونالوا مِنْهُم من الشَّتم والأَذى، فشَكَا ذَلِك أصحابُ رَسُول الله ﷺ إِلَيْهِ، واستأذَنوه فِي الهِجرة إِلَى الْمَدِينَة، فأَذِن لَهُم، وخرجوا أرسالاً مستخفين، فكان أول من خرج إلى المدينة مهاجراً أبو سلمة بن عبد الأسد، هو وامرأته أم سلمة وَلَكِنَّ قومها منعوها مِنَ اللَّحَاقِ بِهِ سَنَةً، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا سلمة، ثُمَّ خَرَجَتْ بَعْدَ السَّنَةِ بِوَلَدِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ خَرَجَ النَّاسُ أَرْسَالًا يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَمْ يَبْقَ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وأبو بكر وعلي أَمرهما الرسول ﷺ بالانتظار حتى يؤذن لهم(١).

١ – هجرة النبي ﷺ وأبي بكر إلى المدينة.

روى الإمام البخاري تفاصيل هجرة النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: « لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ، إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ المسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ المَعْدُومَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا: لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِصَلاَتِهِ وَلاَ يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَنْقَذِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لاَ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلاَةِ وَالقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلاَنَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لاَ أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: «إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لاَبَتَيْنِ» وَهُمَا الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ المَدِينَةِ،

(١) ابن القيم: زاد المعاد، (٣/ ٤٥).

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ وَهُوَ الخَبَطُ(١)، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ، قَالَ: عُرْوَةُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا(٢)، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ - بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِالثَّمَنِ». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ(٣)، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ(٤)، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا(٥)، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ(٦)، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا، يُكْتَادَانِ بِهِ(٧) إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ(٨)، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا(٩) حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ(١٠)، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنْعِقَ(١) بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ(٢)، يَفْعَلُ

(١) السَّمُرِ: هو شَجَرُ الطَّلْحِ والواحدة سَمُرَةٌ. الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، أبو عبد الرحمن (ت١٧٠هـ): كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د.ت)، (٢٥٥/٧).

(٢) مُتَقَنِّعًا أي: مُغَطِّيًا رَأْسَ بالرداء وَنَحْوه، عياض، بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، القاضي (ت ٥٤٤هـ): مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة ودار التراث، ١٣٣٣هـ، (١٨٧/٢).

(٣) أَحَثَّ الجِهَازِ: أي أَسْرَعَه وأعجلَهُ. عمر، أحمد مختار عبد الحميد: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، (٤٤٢/١).

(٤) السفرة زاد للسفر والجِرَابِ: وِعاءٌ مِن جِلْدٍ، فنُقِل اسمُ الطعام إلى الجلد، الأصبهاني المديني، أبو موسى، مُحَمَّد بن عمر بن أحمد بن عمر بن مُحَمَّد (ت ٥٨١هـ): المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م، (٩٧/٢).

(٥) النِّطاقِ: ثوبٌ تَلْبَسه المرْأةُ وتَشُدُّ به وسَطَها. الأصبهاني المديني: المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، (٣٣٨/٣).

(٦) لَقِنٌ: سَريعُ الفَهْمِ، ثَقِفٌ: حاذِقٌ فَطِنٌ. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، (٤٤٢/١).

(٧) يُكْتَادَانِ بِهِ مِن الكَيدِ وهو المكر والمعنى: فعل السوء وتدبيره لَهما. الأصبهاني المديني: المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، (٣٥٠/١).

(٨) مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ: هي الشَّاةُ يُعْطيها الرَّجُلُ غَيْرَه ليَحلُبَها وينتَفِعَ بلَبَنِها. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٤/ ٣٦٤).

(٩) فَيُرِيحُها أي: يذهَبُ بها إليهما وقت الرواح وهو العشي عكس الصباح. ابن منظور: لسان العرب، (٤٦٤/٢).

(١٠) الرِّسْلُ: هو اللَّبَنُ الطَّازَج. ابن منظور: لسان العرب، (٣٧٣/١٣).

ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيًا خِرِّيتًا، وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاَثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ»(٣) .

٢- المشركون في دار الندوة.

لما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا بأهليهم إلى المدينة، وعرفوا أن الدار دار منعة وأن القوم أهل بأس فخافوا خروج رسول الله ﷺ فيشتد أمره عليهم فاجتمعوا في دار الندوة، وتشاوروا فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال آخرون: أخرجوه، فقال أبو جهل: أرى أن تخرجوا من كل قبيلة رجلاً ثم يأخذوا أسيافهم فيضربونه ضربة واحدة فلا يدري من قتله فتفتدونه فأطلع الله نبيه على ذلك، قال الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٤)، فبات علي في فراشه تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبون أنه رسول الله ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل، اختلط عليهم الأمر فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب لقن ثقف فيخرج من عندهما سحراً فيصبح عند قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من الليل فيبيتان في رسلها حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك كل ليلة، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر عبد الله بن أريقط الليثي وكان دليلاً ماهراً - وكان على دين قومه - فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث، فأتى صبيحة ليال ثلاث، بعدما هدأ الطلب عنهما فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر والدليل، فأخذ بهم طريق الساحل(٥) .

---

(١) حتَّى «يَنْعِقَ»، أي: يَصيحَ. الحَمِيدي، مُحَمَّد بن فتوح بن حميد الأزدي أبو عبد الله بن أبي نصر (ت ٤٨٨هـ): تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: زبيدة مُحَمَّد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة، ط ١، القاهرة، مصر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (ص ٥٥١).

(٢) الغَلَس ظُلْمةُ آخِرِ اللَّيلِ، ومعناه: أنَّه كان يرُدُّها إلى باقي غَنَمِه في ذلك الوَقتِ. الحَمِيدي: تفسير غريب ما في الصحيحين، (ص ٥٥١).

(٣) البخاري: الصحيح، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، (٥/ ٥٨)، رقم الحديث ٣٩٠٥.

(٤) سورة الأنفال: (آية: ٣٠).

(٥) مُحَمَّد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ﷺ، (ص: ١٢٨).

٣- قصة أم معبد الخزاعية.

عن حُبَيشِ بنِ خالدٍ صاحبِ رسولِ اللهِ ﷺ: «أنَّ النبيَّ ﷺ حينَ خرجَ مِن مكةَ خَرَجَ مِنها مُهاجراً إلى المدينةِ هو وأبو بكرٍ ومَولى لأبي بكرٍ عامرُ بنُ فُهَيرةَ ودليلُهما اللَّيثيُّ عبدُاللهِ بنُ أُريقِطٍ، مَرُّوا على خَيمَتي أُمِّ مَعْبَدٍ الخُزاعيةِ، وكانتْ بَرْزَةً(١) جَلْدَةً تَحتَبي بفناءِ القبةِ ثم تَسقي وتُطعمُ، فسألُوها تمراً ولحَماً يَشترونَه مِنها، فلم يُصيبوا عندَها مِن ذلكَ شيئاً، وكانَ القومُ مُرْمِلين مُسْنِتين(٢)، فنظرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى شاةٍ في كِسْرِ الخَيمةِ(٣)، فقالَ: «ما هذه الشاةُ يا أُمَّ مَعبدٍ؟» قالتْ: شاةٌ خَلَّفَها الجَهْدُ عن الغنمِ، قالَ: «هل بِها مِن لبنٍ؟» قالتْ: هي أَجهَدُ مِن ذلكَ، قالَ: «أَتأذَنينَ أنْ أَحلُبَها؟» قالتْ: نَعم بأبي أَنت وأُمي إنْ رأيتَ بِها حلباً فاحْلُبْها، فدَعا بِها رسولُ اللهِ ﷺ فمسَحَ بيدِهِ ضَرْعَها وسمَّى اللهَ ودَعا لها في شاتِها، فتفَاجَّتْ(٤) عليه ودرَّتْ واجتَرَّتْ، ودَعا بإناءٍ يُرْبِضُ الرهطَ(٥) فحَلَبَ ثجَّاً(٦) حتى عَلاه البَهاءُ(٧)، ثم سَقاها حتى رَويتْ، ثم سَقى أصحابَهُ حتى رَووا، ثم شربَ آخِرَهم، ثم حلَبَ ثانياً بعدَ بَدْءٍ حتى ملأَ الإناءَ ثم غادَرَهُ عندَها وبايَعها وارتَحلوا عنها

فَقَلَّ ما لبثَتْ حتى جاءَ زوجُها أبو مَعبدٍ يسوقُ أَعْنزاً عِجافاً تَساوَكْن هزلاً(٨) مُخهنَّ قليلٌ، فلمَّا رأَى أبو مَعبدٍ اللَّبنَ عَجِبَ وقالَ: مِن أينَ لكِ هذا يا أُمَّ معبدٍ والشاءُ عازبٌ حِيالٌ، ولا حَلُوبَ في البيتِ؟ قالتْ: لا واللهِ إلا أَنَّه مَرَّ بِنا رجلٌ مباركٌ مِن حالِهِ كَذا وكَذا، قالَ: صِفِيه لي يا أُمَّ مَعبدٍ.

قالتْ: رجلٌ ظاهرُ الوَضاءةِ، أبلَجُ الوجهِ، حسنُ الخَلقِ، لم تَعِبْه ثُجْلَةٌ(٩)، ولم تُزْرِ به صَعْلَةٌ(١٠)، وسيمٌ قَسيمٌ، في عينيهِ دَعَجٌ(١١)، وفي أشفارِهِ وَطَفٌ(١٢)، وفي صوتِهِ صَحَلٌ(١)، وفي عُنقِه سَطَعٌ(٢)، وفي لحيتِهِ كثاثةٌ، أَزجُّ أَقرنُ(٣)، إنْ صَمَتَ

---

(١) امرأةٌ بَرْزَةٌ، بِالْفَتْح: أي بارِزَةُ المحاسِن والمزايا مَوْثُوقٌ برأيِها، وَقيل: كَهْلَةٌ لَا تَحْتَجِبُ احتِجابَ الشَّابَّات تَبْرُزُ للقَوم يَجْلِسون إِلَيْهَا ويتحدَّثون معَهَا وَهِي مَعَ ذَلِك عَفيفةٌ عاقِلةٌ. الزَّبيدي: تاج العروس، (١٥/ ٢٠).

(٢) مُرْمِلِينَ مُسْنِتِينَ: أي مفتقرين ومجدبين، وأصلها من السَّنَة وهو الجدْب. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٢/ ٤٤٣).

(٣) كِسْرِ الخَيمةِ: أي ركن من أركانها أو جانب من جوانبها. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٤/ ١٧٢).

(٤) تَفَاجَّتْ: أي فَرَّجَت ما بَيْن رِجلَيْها للحلب أو للبول حتى صارت لها فجوة. الخطابي: غريب الحديث، (١٢٧/١).

(٥) يُرِبضُ الرَّهْطَ: يُرويهم، والرهط: ما بين الثلاثة إلى العشرة. الجوهري، إسماعيل بن حماد أبو نصر الفارابي (ت ٣٩٣هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (١٠٧٦/٣).

(٦) فحلَب فِيهِ ثَجًّا: أَيْ لَبناً سَائِلًا كَثِيرًا. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٢٠٧/١).

(٧) حتى علاه البهاء يعني: علاه الرغوة اللبنية، وفي رواية الثمال. الأصبهاني المديني: المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، (٢٧٣/١).

(٨) يَتَسَاوَكْنَ: أي يسرن سيراً ضعيفاً، تَساوَكت فِي الْمَشْيِ وتَسَرْوَكَت وَهُمَا رَداءَة الْمَشْيِ والبُطْءُ فِيهِ مِنْ عَجَفٍ أَو إِعْيَاءٍ. ابن منظور: لسان العرب، (٤٤٦/١٥).

(٩) ثُجْلَةٌ: أي عظم البطن. الخطابي: غريب الحديث، (٤٥١/٢).

(١٠) لم تُزْرِ به صَعْلَةٌ: لم يشنه صِغْرُ الرَّأْسِ. الزَّبيدي: تاج العروس، (٣١٥/٢٩).

(١١) في عينيهِ دَعَجٌ: الدَّعَجُ والدَّعْجَةُ: السوادُ فِي العَين وَغيرِهَا. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (١١٩/٢).

(١٢) فِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ: أي في شعر أَجْفَانه طُولٌ. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٢٠٤/٥).

فعليه الوقَارُ، وإنْ تكلَّمَ سَمَا وعلاهُ البَهاءُ(٤)، أجمَلُ الناسِ وأَبْهاهُ مِن بعيدٍ، وأحسنُهُ وأَحلاهُ مِن قريبٍ، حلوُ المنطقِ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هذرٌ(٥)، كأنَّ مَنطِقَهُ خَرزاتُ نَظْمٍ يَتحدَّرْنَ، رَبْعَةٌ(٦) لا تَيْئَسُ مِنْ طُولٍ وَلا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ(٧)، غُصنٌ بين غُصنينِ فهو أنضرُ الثلاثةِ مَنظراً، وأَحسنُهم قَدراً، له رفقاءُ يَحُفُّونَ بِه، إنْ قالَ أَنصَتُوا لقولِهِ، وإنْ أَمَرَ تَبادَروا إلى أمرِهِ، محفودٌ محشودٌ(٨)، لا عابسٌ ولا مُفَنِّدٌ(٩).

قَالَ أَبُو مَعْبَدٍ: فَهذا واللهِ صاحبُ قُريشٍ الذي ذُكِرَ لنا مِن أمرِهِ ما ذُكِرَ بمكةَ، ولقدْ هَممتُ أَنْ أصحَبَهُ، ولأَفعلَنَّ إنْ وَجدتُ إلى ذلكَ، سَبِيلاً»(١٠) .

٤ – قصة سراقة بن مالك.

«وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ المُدْلِجِيُّ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ، أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ، فَقَالَ يَا سُرَاقَةُ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً(١١) بِالسَّاحِلِ، أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا، انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا(١٢)، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي المَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ

---

(١) فِي صَوْتِهِ صَحَلٌ: أي بُحوحَة من غير حدة. الجوهري: الصحاح، (١٧٤٣/٥).

(٢) السَّطَعُ بِالتَّحْرِيكِ :طُولُ العُنُق. ابن منظور: لسان العرب، (١٥٥/٨).

(٣) أَزَجُّ أَقرنُ: الزَجَجُ :دِقَّةٌ في الحاجبَين وطولٌ وتقوس، وأقرن يعني مَقْرونُ الحاجِبَيْنِ. الجوهري: الصحاح، (٣١٩/١).

(٤) إِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وعلاهُ البَهاءُ: أَيِ ارْتفعَ وعَلا عَلَى جُلسائه، والسُّمُوُّ: هو العُلوُّ يُقَال: سُمَا يَسْمُو سُمُوّاً فَهُوَ سَامٍ. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٢٠٤/٥).

(٥) فَصْلٌ لا نَزْرٌ وَلا هَذَرٌ: يعني وسط لَيْسَ بِقَلِيل فيدلُّ على عِيٍّ وَلَا بكثيرٍ فاسدٍ. الزَّبيدي: تاج العروس، (٢٥٠/١٤).

(٦) الرَّبْع :الرجلُ المُتَوَسِّطُ القامةِ بَين الطُّولِ والقِصَر. الزَّبيدي: تاج العروس، (٢٤/٢١).

(٧) لَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَر: أَيْ لَا تَتَجاوَزُه إِلَى غَيْرِهِ احْتِقاراً لَهُ، والمعني ليس بالطويل البائن ولا بالقصير القزم. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (١٩/٤).

(٨) مَحْفُودٌ مَحشُودٌ: المحفود، الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه، ويسرعون في طاعته، والمحشود: المحفوف المطاف به، والمقصود أن أصحابه يَخْدِمُونَهُ وَيَجْتَمِعُونَ إليه. ابن منظور: لسان العرب، (١٥٠/٣).

(٩) لا عَابِسٌ: ليس كالح الوجه بل طليقه، وَلا مُفنِّد: بكسر النون المشددة: كثير اللوم، فهو حسن الصحبة، جميل المعاشرة. ابن منظور: لسان العرب، (١٢٨/٦).

(١٠) الخركوشي، عبد الملك بن مُحَمَّد النيسابوري (ت: ٤٠٧هـ)، شرف المصطفى، تحقيق: نبيل بن هاشم الغمري آل باعلوي، دار البشائر الإسلامية، ط ١، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ، (٢/ ٣٥٦، ٣٥٩)، البيهقي: دلائل النبوة، (١/ ٢٧٨).

(١١) «أَسْوِدةً»: جمع سَواد وهو شخص من مَتَاع أَو إِنْسَان أَو غَيره يظهر من بعيد والمراد أي أَشْخاصٍ لم أتحقق منهم. الحَمِيدي: تفسير غريب ما في الصحيحين، (ص ٤٥٩).

(١٢) تيقن سراقة أنَّهما رَسولُ اللهِ ﷺ وصاحِبُه، ولكنَّه خطَّأَ ظنَّ هذا الرَّجلِ، وأوْهَمَه أنَّه إنَّما رَأى غيرهم ليظفر وحده بجائزة قريش.

بِفَرَسِي، وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ(١)، فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ البَيْتِ، فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الأَرْضَ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ(٢)، حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا، فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي، حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلاَمَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا(٣): أَضُرُّهُمْ أَمْ لاَ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي، وَعَصَيْتُ الأَزْلاَمَ، تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ لاَ يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ، سَاخَتْ(٤) يَدَا فَرَسِي فِي الأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً، إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ(٥) سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلاَمِ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عَنْهُمْ، أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالمَتَاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلاَنِي(٦)، إِلَّا أَنْ قَالَ: «أَخْفِ عَنَّا» فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ(٧)، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(٨).

وعن أنس بن مالك قال: «أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردفٌ، أبا بكر وأبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكرﷺ فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله، هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبي الله ﷺ فقال: اللهم اصرعه فصرعه الفرس، ثم قامت

(١) أمَر جاريَتَه أنْ تَخرُجَ بفرَسِه مُتستِّرةً عنِ النَّاسِ؛ لئلَّا يَعلَمَ أحَدٌ بخُروجِه فيَسبِقَه إلى محمَّدٍ ﷺ وصاحِبِه، والأَكَمَةُ: الرابية المرتَفِعة على وَجه الأَرْض. الحَمِيدي: تفسير غريب ما في الصحيحين، (ص ٤٥٩).

(٢) «فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الأَرْضَ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ»: أرخَيْتُ رُمْحي حتَّى مسَّ زُجُّه -وهي الحَديدُ الَّذي في أسفَلِ الرُّمحِ- الأرضَ، وبالَغْتُ في خَفضِ أعْلاه؛ لئلَّا يظهَرَ لمن بعُدَ عنه. عياض: مشارق الأنوار، (١/ ١٩٣).

(٣) «الأزلامَ»: هِيَ السِّهَامُ أو الأقلام الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا، كانوا يَكتُبون على بعضِها «نَعَم»، وعلى بعضِها «لا»، وكانوا إذا أرادوا أمرًا استَقْسَموا بها، فإذا خرَجَ السَّهمُ الذي عليه «نَعَم» خَرَجوا، وإذا خرَجَ الآخَرُ لم يَخْرُجوا، ومعنى الاستقسامِ: مَعرِفةُ قسْمِ الخيرِ والشَّرِّ- فلمَّا استَقْسَمَ ليَعرِفَ هل يَنفَعُهم أمْ يَضُرُّهم؟ خرَجَ السَّهمُ الَّذي يدُلُّ على ألَّا يَضُرَّهم. الرازي، مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، أبو عبد الله زين الدين، (ت ٦٦٦هـ): مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصرية ط ٥، بيروت – صيدا، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، (ص ١٣٧).

(٤) «ساخَتْ»: أي غاصَتْ ودخلت فيها وغابت. الجوهري: الصحاح، (٤٢٤/١).

(٥) «عُثَانٌ»: غُبارٌ شَديدٌ. الفيومي: المصباح المنير، (١٩١/١).

(٦) «فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلاَنِي»: فلمْ يَأخُذا مني شَيئًا، ولم يَسْأَلاني شَيئًا ممَّا هو معَي. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (٢١٨/٢).

(٧) «الأَدِيم»: هو الجِلْدُ. الزَّبيدي: تاج العروس، (١٩٢/٣١).

(٨) البخاري: الصحيح، باب هجرة النبي ﷺ، (٥/ ٦٠)، رقم الحديث ٣٩٠٦.

تحمحم، فقال: يا نبي الله، مرني بم شئت، قال :فقف مكانك، لا تتركن أحداً يلحق بنا قال :فكان أول النهار جاهدا على نبي الله ﷺ، وكان آخر النهار مسلحة له..»(١).

المدينة في استقبال النبي ﷺ.

لما سمع المسلمون في المدينة بخروج رسول الله ﷺ مهاجراً من مكة، كانوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ، فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَمَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ(٢) مِنْ آطَامِهِمْ، لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ(٣) يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ، هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ، حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ(٤)، وكانت المدينة كلها قد زحفت لاستقبال ركب رسول الله ﷺ الميمون، وكان يومًا مشهودًا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها.

١ – مدة مكثه في قباء وتأسيس مسجد قباء.

ولبث رسول الله ﷺ في بني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً(٥)، وأسس المسجد الذي قال الله عنه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(٦) وَصَلَّى فِيهِ ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَاحِلَتَهُ، فَسَارَ وَمَشَى النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ بِهِ عِنْدَ مَسْجِدِهِ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسَهْلٍ وَسُهَيْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ أَخَوَيْنِ فِي حِجْرِ أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»(٧) .

---

(١) البخاري: الصحيح، باب هجرة النبي ﷺ، (٥/ ٦٢)، رقم الحديث ٣٩١١.

(٢) الأُطُم: الحِصْن المَبْنِيُّ بِالحِجَارَة. ابن منظور: لسان العرب، (١٩/١٢).

(٣) مُبَيِّضِينَ: لابِسِين ثِيَابًا بِيضًا. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، (١٧٣/١).

(٤) لفظه عند البخاري من حديث عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِيُّ عن أبيه. البخاري: الصحيح، باب هجرة النبي ﷺ، (٥/ ٦٠)، رقم الحديث ٣٩٠٦.

(٥) أخرجه الشيخان. البخاري: الصحيح، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، (١/ ٩٣)، رقم الحديث ٣٩٠٦؛ مسلم: صحيح مسلم، (١/ ٣٧٣)، رقم الحديث ٥٢٤.

(٦) سورة التوبة: آية ١٠٨.

(٧) الصنعاني: المصنف، (٦/ ٦٢)، رقم الحديث ١٠٥٩٢.

وفي الوقت الذي انشغل فيه المسلمون باستقبال رسول الله ﷺ بادر أبو أيوب خالد بن زيد ﷺ إلى رحل النبي ﷺ وحمله إلى بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله»(١) ، وبعث رسول الله ﷺ وهو في منزل أبي أيوب – زيد بن حارثة وأبا رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بأهله(٢).

٢– النبي ﷺ في ضيافة أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

روى الإمام مسلم من حديث عَاصِمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ أَفْلَحَ، مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّفْلِ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعِلْوِ، قَالَ: فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَةً، فَقَالَ: نَمْشِي فَوْقَ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَنَحَّوْا فَبَاتُوا فِي جَانِبٍ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «السُّفْلُ أَرْفَقُ»، فَقَالَ: لَا أَعْلُو سَقِيفَةً أَنْتَ تَحْتَهَا، فَتَحَوَّلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْعُلُوِّ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ، فَكَانَ يَصْنَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا فَإِذَا جِيءَ بِهِ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فِيهِ ثُومٌ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَأْكُلْ، فَفَزِعَ وَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ»، قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ – أَوْ مَا كَرِهْتَ –، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى»(٣).

بناء المسجد .

لما نزل رسول الله ﷺ دعا الغُلاَمَيْنِ «سهيل وسهل»، فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ، لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالاَ: لاَ، بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ، وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ: «هَذَا الحِمَالُ لاَ حِمَالَ خَيْبَرْ، هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَر»، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخرة، فَارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَالمهَاجِرَة»، وفي الصحيح أيضاً عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ»، قَالُوا: لاَ نَطْلُبُ ثَمَنَهُ، إِلَّا إِلَى اللَّهِ»(٤) .

وكان فيه شجر غرقد ونخل وبقايا قبور للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت وبالنخيل والشجر فقطع، وصفت في قبلة المسجد وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، وأساسه من الحجر قريباً من ثلاثة أذرع ثم بنوه باللبن، وجعل رسول الله ﷺ قبلته إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب باب في المؤخرة وباب يقال

(١) النيسابوري: شرف المصطفى، (٢/ ٣٦٥).

(٢) أحمد بن مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري، أبو العباس، شهاب الدين (ت ٩٢٣هـ): المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د–ت)، (١ / ١٨٤).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، (٣/ ١٦٢٣)، رقم الحديث٢٠٥٣.

(٤) صحيح البخاري، (٤/ ١٣) ، (٥/ ٦١).

له باب الرحمة والباب الذي يدخل منه رسول الله ﷺ وجعل أعمدته الجذوع وسقفه الجريد وقيل له ألا تسقفه؟ قال «ابْنُوهُ عَرِيشًا كَعَرِيشِ مُوسَى»(١).

وبنى بيوت نسائه إلى جانبيه باللبن وسقفها بالجذوع والجريد، ولما فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد وكان بناؤه بها في شوال من السنة الأولى، وجعل لسودة بيتاً آخر(٢).

المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين.

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكانوا تسعين رجلاً من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار على المواساة، ويتوارثون بعد الموت إلى وقعة بدر، فلما نزلت، {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ}(٣) ردَّ التوارث إلى الرحم وقيل: إنه آخى بين المهاجرين ثانية، واتخذ علياً أخاً، والثابت الأول(٤) .

تحويل القبلة.

ظل النبي ﷺ وأصحابه يصلون إلى بيت المقدس مدة سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا بعد الهجرة وكان يحب أن يصرفه الله إلى الكعبة، فَقَالَ لِجِبْرِيلَ: وَدِدْتُ أَنْ يَصْرِفَ اللَّهُ وَجْهِي عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَادْعُ رَبَّكَ وَاسْأَلْهُ، فَجَعَلَ يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي السماء يرجو ذلك، فأنزل اللَّهُ عَلَيْهِ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}(٥)، وكان في ذلك حِكَمٌ عَظِيمَةٌ، وَمِحْنَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ، فأما المسلمون، فقالوا: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}(٦)، وَهُمُ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ، وَلَمْ تَكُنْ كَبِيرَةً عَلَيْهِمْ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالُوا: كَمَا رَجَعَ إِلَى قِبْلَتِنَا يُوشِكُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا وَمَا رَجَعَ إِلَيْهَا إِلَّا لأَنَّهَا الْحَقُّ، وَأَمَّا اليهود، فقالوا: خالف قِبلةَ الأنبياء قَبْله، وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري أَيْنَ يَتَوَجَّهُ إِنْ كَانَتِ الْأُولَى حَقًّا فَقَدْ تَرَكَهَا، وَإِنْ كَانَتِ الثَّانِيَةُ هِيَ الْحَقَّ، فَقَدْ كَانَ عَلَى بَاطِلٍ. وَكَثُرَتْ أَقَاوِيلُ السُّفَهَاءِ مِنَ الناس، وكانت كما قال الله تعالى: {وإن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى الله}(٧)، وهي محنة من الله لإظهار من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه(٨)، وكان ذلك في شعبان من السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر الكبرى بشهرين .

---

(١) رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَسَنِ. قَالَ: لَمَّا بَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ وَهُوَ مَعَهُمْ يَتَنَاوَلُ اللَّبِنَ حَتَّى اغْبَرَّ صَدْرُهُ، فَقَالَ «ابْنُوهُ عَرِيشًا كَعَرِيشِ مُوسَى» فَقُلْتُ لِلْحَسَنِ: مَا عَرِيشُ مُوسَى؟ قَالَ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ بَلَغَ العريش. البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، ط الفكر (٣/ ٢١٥).

(٢) مختصر زاد المعاد، للشيخ المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب النجدي (ت: ١٢٠٦هـ)، (ص: ١١٦).

(٣) سورة الأحزاب: آية ٦.

(٤) مختصر زاد المعاد، للشيخ المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب النجدي (ت: ١٢٠٦هـ)، (ص: ١١٧).

(٥) سورة البقرة : آية ١٤٤.

(٦) سورة آل عمران: آية ٧.

(٧) سورة البقرة : آية ١٤٣.

(٨) مختصر زاد المعاد، للشيخ المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب النجدي (ت: ١٢٠٦هـ)، (ص: ١١٧،١١٨).

الإذن بالجهاد.

لَمَّا اسْتَقَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وأيده الله بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم بعد العداوة، فَمَنَعَتْهُ أَنْصَارُ اللَّهِ، وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَسْوَدِ والأحمر، وبذلوا أنفسهم دُونَهُ، وَقَدَّمُوا مَحَبَّتَهُ عَلَى مَحَبَّةِ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْأَزْوَاجِ، وَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ وَالْيَهُودُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَشَمَّرُوا لَهُمْ عن ساق العداوة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله تعالى يَأْمُرُهُمْ بِالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ حَتَّى قَوِيَتِ الشَّوْكَةُ، وَاشْتَدَّ الْجَنَاحُ، فَأُذِنَ لَهُمْ حِينَئِذٍ فِي الْقِتَالِ، وَلَمْ يَفْرِضْهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ تَعَالَى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}(١)، وهي أول آية نزلت في القتال، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَذِنَ لَهُمْ فِي قِتَالِ مَنْ قَاتَلَهُمْ، فَنَزَلَ: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}(٢)، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقال{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} . (٣)

لماذا لم يؤذن بالجهاد في مكة؟

الغزوات والسرايا .

الغزوة في اصطلاح الرواة وأصحاب السير هي الحرب التي يحضرها الرسول ﷺ بنفسه، وأما البعث، أو السرية فإنه يرسل فيها طائفة من أصحابه(٤) .

أشهر السرايا والغزوات قبل بدر الكبرى.

أرسل النبي ﷺ عدة سرايا وخرج على رأس عدة غزوات في السنة الأولى للهجرة.

- فأول لواء عقده كان لعمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في رمضان على سبعة أشهر من الهجرة، بعثه في ثلاثين مِنَ الْمُهَاجِرِينَ خَاصَّةً، يَعْتَرِضُ عِيرًا جَاءَتْ من الشام لِقُرَيْشٍ، فيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل، فلما التقوا حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني وَكَانَ حَلِيفًا لِلْفَرِيقَيْنِ.
- ثم بعث ابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فِي سَرِيَّةٍ إِلَى بَطْنِ رَابِغٍ فِي شَوَّالٍ في ستين من المهاجرين، فلقي أبا سفيان في مائتين، ووقع بينهم رمي، ولم يسلُّوا السيوف، وكان سعد بن أبي وقاص أَوَّلُ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.
- ثم غزا بنفسه غزوة الأبواء وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه، خرج فِي الْمُهَاجِرِينَ خَاصَّةً يَعْتَرِضُ عِيرًا لِقُرَيْشٍ، فَلَمْ يلق كيداً.
- ثم غزا بواط في شهر ربيع فِي مِائَتَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَعْتَرِضُ عِيرًا لِقُرَيْشٍ، حتى بلغ بواط لم يلق كيدا ورجع.

---

(١) سورة الحج: آية ٣٩.

(٢) سورة البقرة : آية ١٩٠.

(٣) مختصر زاد المعاد، للشيخ المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب النجدي (ت: ١٢٠٦هـ)، (ص: ١١٩)، مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب (ص: ١٤٥)، والآية الكريمة من سورة التوبة : آية ٣٦.

(٤) كان عدد الغزوات التي خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه سبعاً وعشرين، قاتل بنفسه في تسع منها، وبلغ سراياه سبعاً وأربعين، وقيل: بل نحواً من ستين.

- ثُمَّ خَرَجَ ﷺ علَى رَأْسِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَهْرًا لطلب كرز بن جابر لما أغار على المدينة، حتى بلغ سفوان من ناحية بدر، ففاته كرز.
- ثم خرج ﷺ على رأس ستة عشر شهراً في مائة وخمسين من المهاجرين، يعترض عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، فبلغ ذا العشيرة، فوجدها قد فاتته وهي التي خرج في طلبها لما رجعت من الشام، ووقعت بدر.
- ثم بعث عبد الله بن جَحْشٍ إلى نخلة فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، كُلُّ اثْنَيْنِ يَعْتَقِبَانِ عَلَى بَعِيرٍ، فَوَصَلُوا إِلَى بَطْنِ وادي نخلة(١) يرصدون عيراً لقريش، وأضل سعد وعتبة بن غزوان بعيرا لهما، فتخلفا في طلبه، ونفذوا إلى بطن نخلة، فمرت بهم عير لقريش، فقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، وإن تركناهم الليلة دخل الْحَرَمَ، ثُمَّ أَجْمَعُوا عَلَى مُلَاقَاتِهِمْ، فَرَمَى أَحَدُهُمْ عمرو بن الحضرمي، فَقَتَلَهُ وَأَسَرُوا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، وعزلوا الخمس، فكان أول خمس في الإسلام، فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه، واشتد إنكار قريش، وزعموا أنهم وجدوا مقالاً، واشتد على المسلمين ذلك، فأنزل الله عز وجل: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ}(٢)، يقول سبحانه: وَإِنْ كَانَ هذا كَبِيرًا، فَمَا ارْتَكَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ مِنَ الكفر، والصد عن سبيل الله وبيته، وَإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ مِنْهُ، وَالشِّرْكِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَالْفِتْنَةُ الَّتِي حَصَلَتْ مِنْكُمْ أكبر عند الله، فأقر الله تبارك وتعالى الكفار على عيبهم على المسلمين قتالهم في الشهر الحرام، وقال إن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن أكبر منه وأعظم جرماً ما أنتم عليه معشر المشركين من الكفر بالله، والصد عن سبيله وعن المسجد الحرام، وما أنتم عليه من الشرك، وإخراج المسلمين أولياء الله من بيت الله الحرام، هذا الذي أنتم عليه أكبر عند الله من انتهاك المسلمين للشهر الحرام، فأنتم تستحقون القدح والذم والعيب والمقت والعقوبة، أما المهاجرون؛ فإنهم وإن انتهكوا حرمة الشهر الحرام؛ فإن ما انتهكوها بنوع تأويل أو تقصير حصل، والله يعفو عنهم لأنهم أهل الإيمان وأهل توحيده وعبادته، هم الذين هاجروا مع رسوله، ونصروا دينه وتركوا ديارهم وأموالهم، ابتغاء مرضاته، فلا حرج عليهم فيما كان منهم من القتال في الشهر الحرام(٣) .

ويلاحظ أن جميع السرايا والغزوات قبل بدر، لم يجر في واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال(٤) .

لاحظ أن النبي ﷺ خرج بنفسه، وبدأ بأعمامه وبني عمومته في السرايا والغزوات الأولى.

---

(١) موضع بين مكة والطائف.

(٢) سورة البقرة : آية ٢١٧.

(٣) مختصر زاد المعاد، للشيخ المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب النجدي (ت: ١٢٠٦هـ)، (ص: ١٤٠،١٣٨)،سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، صالح طه عبد الواحد (١/ ٢٩٨).

(٤) مختصر زاد المعاد، للشيخ المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب النجدي (ت: ١٢٠٦هـ)، (ص: ١٤٠،١٣٨)، الرحيق المختوم، للمباركفوري، (ص: ١٨١)، سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، صالح طه عبد الواحد (١/ ٢٩٨).

غزوة بدر الكبرى.

وقعة بدر الكبرى، هي الوقعة العظيمة التي فرق الله فيها بين الحق والباطل وأعز الإسلام، ودمغ الكفر وأهله، وذلك أنه لما كان في رمضان من السنة الثانية للهجرة بلغ رسول الله ﷺ إن عيراً مقبلةً من الشام صحبة أبي سفيان، صخر بن حرب، في ثلاثين أو أربعين رجلاً، تحمل أموالاً جزيلة لقريش، ندب ﷺ الناس للخروج إليها، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، لثمان خلون من رمضان، واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ﷺ.

لم يكن معهم من الخيل سوى فرسين، ومن الإبل سبعين بعيراً يتعاقب الرجلان أو أكثر على البعير الواحد، فرسول الله ﷺ وعلي، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً(١)، وزيد بن حارثة وأنس وأبو كبشة موالي رسول الله ﷺ وحمزة يعتقبون جملاً، وأبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ﷺ على جمل آخر.. وهكذا.

دفع رسول الله ﷺ اللواء إلى مصعب بن عمير ﷺ، وراية المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ﷺ وراية الأنصار كانت بيد سعد بن معاذ ﷺ(٢) .

وأما أبو سفيان فإنه بلغه خروج رسول الله ﷺ وقصده إياه، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم ليمنعوه من مُحَمَّد وأصحابه(٣)، وبلغ الصريخ أهل مكة، فنهضوا مسرعين لم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين.

وكان خروجهم كما قال الله عز وجل: {بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}(٤) وأقبلوا في تحمل وحنق عظيم على رسول الله ﷺ وأصحابه.

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش، اسْتَشَارَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فَقَالَوَا حسن، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَوَا حسن، ثُمَّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ امْضِ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ، فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ، فَقَاتِلا إِنَّا مَعَكُمَا مقاتلون، فو الذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى برك الغماد لجلدنا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى نَبْلُغَهُ(٥)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أشِيرُوا عَلَيّ أَيّهَا النّاسُ. وَإِنّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارُ، وَذَلِكَ أَنّهُمْ عَدَدُ النّاسِ ورَسُولُ اللهِ ﷺ يتَخَوّفُ أَلّا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَ انَصْرَهُ إلّا مِمّنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ. فَلَمّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: وَاَللهِ لَكَأَنّك تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ "أَجَلْ" قَالَ لَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك، وَشَهِدْنَا أَنّمَا جِئْت بِهِ هُوَ الْحَقّ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودِنَا وَمَوَاثِيقِنَا، عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْت فَنَحْنُ مَعَك، فَوَ الّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ. لَعَلَّ اللَّهَ

---

(١) يَعْتَقِبونَ البعير يَتَناوَبُونه في الركوب. ابن منظور لسان العرب، (١/ ٦١٥).

(٢) النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان(ت: ٣٥٤هـ)، (١/ ١٥٨).

(٣) سيرة ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون (١/ ٦٠٧).

(٤) سورة الأنفال: الآية ٤٧.

(٥) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، (ت: ٧٣٤هـ)، (١/ ٢٨٨) .

يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ." (١) .

ثم رحل رسول الله ﷺ ونزل قريباً من بدر، فَلَمَّا أَمْسَى بَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ، فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِلَى مَاءِ بَدْرٍ، يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ لَهُ عَلَيْهِ- كَمَا حَدَّثَ يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ- فَأَصَابُوا رَاوِيَةً(٢) لِقُرَيْشٍ فيها عبدين يسقون لهم، فَأَتَوْا بِهِمَا فَسَأَلُوهُمَا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَقَالَا: نَحْنُ سُقَاةُ قُرَيْشٍ، بَعَثُونَا نَسْقِيهِمْ مِنْ الْمَاءِ. فَكَرِهَ الْقَوْمُ خَبَرَهُمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لِأَبِي سُفْيَانَ، فَضَرَبُوهُمَا حتى قَالَا: نَحْنُ لِأَبِي سُفْيَانَ، فَتَرَكُوهُمَا. وَلما فرغ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، من صلاته قَالَ: إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا، وَاللَّهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ، أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ؟ قَالَا: هُمْ وَاللَّهِ وَرَاءَ هَذَا الْكَثِيبِ الَّذِي تَرَى بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى- فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَمْ الْقَوْمُ؟ قَالَا: كَثِيرٌ، قَالَ: مَا عِدَّتُهُمْ؟

قَالَا: لَا نَدْرِي، قَالَ: كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟ قَالَا: يَوْمًا تِسْعًا، وَيَوْمًا عَشْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْقَوْمُ فِيمَا بَيْن التسع مائة وَالْأَلْفِ ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟ قَالَا: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، وَنَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ، وَطُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ نَوْفَلٍ، وَالنَّضْرُ بْنِ الْحَارِثِ، وَزَمَعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَأَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَنُبَيْهُ، وَمُنَبِّهٌ ابْنَا الْحَجَّاجِ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ. فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا(٣).

وأما قريش، فقد همت بالرجوع لما بلغهم خير نجاة أبي سفيان بالعير لكنَّ أَبَا جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ أبى وقَالَ: وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا فَنُقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَنَنْحَرُ الْجُزُرَ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَنُسْقِي الْخَمْرَ، وَتَعْزِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ(٤)، وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا، فَامْضُوا.

فاستجاب له القوم غير أن الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقِ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَهْبٍ الثَّقَفِيُّ، وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي زُهْرَةَ قال لهم: إنما خرجتم لتمنعوا عيركم قَدْ نَجَّى اللَّهُ لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ فَارْجِعُوا، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَكُمْ بِأَنْ تَخْرُجُوا فَرَجَعُوا، وَلَمْ يَشْهَدْهَا زُهْرِيٌّ وَاحِدٌ.

سبق رسول الله صلى الله عليه قريشاً إلى ماء بدر، ونزل على أدنى ماء هناك، فقال له الحباب بن المنذر بن عمرو: أَرَأَيْت هَذَا الْمنزل أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللَّه فَلَيْسَ لنا أَن نتقدمه أَو نتأخر عَنهُ أم هُوَ الرَّأْي وَالْحَرب والمكيدة؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: "بل هُوَ الرَّأْي وَالْحَرب والمكيدة". فَقَالَ: يَا رَسُول اللَّه إِن هَذَا لَيْسَ لَك بمنزل، فانهض بِنَا حَتَّى نأتي أدنى مَاء من الْقَوْم فننزله، ونغور

(١) سيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون (١/ ٦٠٧).

(٢) الراوية: الْإِبِل الَّتِي يستقى عَلَيْهَا الماء وقد تطلق على الوعاء الذي ينقل فيه ماء الشرب. الزَّبيدي: تاج العروس: (٣٨/ ١٩٢) .

(٣) جوامع السيرة لابن حزم (ص: ٨٤).

(٤) كلُّ عبدٍ هو عند العرب قَيْنٌ، والأَمَةُ قَيْنَةٌ. الجوهري: الصحاح، (٢١٨٦/٢).

مَا وَرَاءه من الْقلب، ثمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حوضاً، فنملؤه مَاءً فنشرب وَلَا يشربون. فَاسْتحْسن رَسُول اللَّهِ ﷺ ذلِك من رَأْيه، وَفعله. وَبُنِيَ لرَسُول اللَّه ﷺ عريشاً يكون فِيهِ فاستحسن رسول الله ﷺ منه ذلك([1]).

ومشى ﷺ في موضع المعركة، وجعل يريهم مصارع رؤوس القوم واحداً واحداً، روى أنس عن عمر بن الخطاب وهو يحدث عن يوم بدر قال: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيُخْبِرُنَا عَنْ مَصَارِعِ الْقَوْمِ بِالْأَمْسِ، هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ إِنْ شَاءَ اللهُ غَدًا، هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ إِنْشَاءَ اللهُ غَدًا، فو الذي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَئُوا تِلْكَ الْحُدُودَ جَعَلُوا يُصْرَعُونَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أُلْقُوا فِي الْقَلِيبِ، وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَقَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَتُكَلِّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ»([2]).

وبات رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان، فلما أصبح وأقبلت قريش في كتائبها، قال ﷺ:«اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخَيْلائِهَا وَفَخْرِهَا، تُحَادّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرُكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ أحنهمُ الْغَدَاةَ» .

وعدَّل رسول الله ﷺ الصفوف، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر وحده، وقام سعد بن معاذ وقوم من الأنصار على باب العريش يحمون رسول الله ﷺ .

وخرج عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، ثلاثتهم جميعاً يطلبون المبارزة، فخرج إليهم من المسلمين ثلاثة من الأنصار، وهم: عوف ومعوذ ابنا عفراء، وعبد الله بن رواحة، فقالوا لهم: من أنتم؟ فقالوا: نفر من الأنصار، فقالوا: أكفاء كرام وإنما نريد بني عمنا، ثُمَّ نَادَى مُنَادِيهِمْ: يَا مُحَمَّد أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :«قم يا عبيدة بن الحارث، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ، وَقُمْ يَا عَلِيُّ» ([3]) فَلَمَّا قَامُوا وَدَنَوْا مِنْهُمْ قَالُوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالَ عُبَيْدَةُ: عُبَيْدَةُ، وَقَالَ حَمْزَةُ: حَمْزَةُ، وَقَالَ عَلِيٌّ: علي، قالوا: نعم أكفاء كِرَامٌ، فَبَارَزَ عُبَيْدَةُ، وَكَانَ أَسَنَّ الْقَوْمِ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَبَارَزَ حَمْزَةُ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَبَارَزَ عَلِيٌّ الْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ، فَأَمَّا حَمْزَةُ فَلَمْ يمهلْ شَيْبَةَ أَنْ قَتَلَهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَلَمْ يُمْهِلِ الْوَلِيدَ أَنْ قَتَلَهُ، وَاخْتَلَفَ عُبَيْدَة وَعُتْبَة بَيْنَهُمَا ضَرْبَتَيْنِ، كِلاهُمَا أَثْبَتَ صَاحِبَهُ، وَكَرَّ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ بأسيافهما عَلَى عُتْبَةَ فَقَتَلَاهُ، وَاحْتَملا صَاحِبَهُمَا فَحَازَاهُ إِلَى أَصْحَابِهِ([4]) .

ثم حمي الوطيس، واشتد القتال، ونزل النصر، واجتهد رسول الله ﷺ في الدعاء، وابتهل ابتهالاً شديداً، حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه، وجعل أبو بكر ﷺ يصلحه عليه ويقول: يا رسول الله، هوّن عليك فإن ربك، منجز لك ما وعدك.

ورسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا"» فذلك قوله تعالى {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ}([5])، ثم أغفى رسول الله ﷺ إغفاءةً، ثم رفع رأسه

---

(١) الروض الأنف للسهيلي (ت: ٥٨١هـ)، تحقيق: السلامي،(٥/ ٧٢).

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، (٣/ ٤٨).

(٣) لاحظ أن النبي ﷺ هنا أيضاً أخرج لهم عمه وبني عمومته.

(٤) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، (ت: ٧٣٤هـ)،(١/ ٢٨١).

(٥) سورة الأنفال: الآية ٩.

وهو يقول: «أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعَنَانِ فَرَسِهِ»، ثُمَّ خَرَجَ رسول الله ﷺ إلى النَّاسِ فَحَرَّضَهُمْ وَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّد بِيَدِهِ لا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُل فَيُقْتَلَ صَابِرًا محتسبًا مقبلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»، فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الحمامِ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، وَفِي يَدِهِ تَمَرَاتٌ يَأْكُلُهُنَّ: بخ بخ، أَفَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الْجَنَّة إلا أَنْ يَقْتُلَنِي هَؤُلاءِ، قَالَ: ثُمَّ قَذَفَ التَّمَرَاتِ مِنْ يَدِ هِوَ أَخَذَ سَيْفَهُ فَقَاتَلَ الْقَوم حَتَّى قُتِلَ([1]).

وكان الشيطان قد تبدى لقريش، فأجارهم، وزين لهم الذهاب إلى ما هم فيه، فذلك قوله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ: لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ. فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفئتان نكص على عَقِبَيْهِ وَقَالَ: إني برئ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَاف الله وَالله شَدِيد الْعِقَاب}([2])، وذلك أنه رأى الملائكة حين نزلت للقتال، ورأى ما لا قبل له به، ففر وقاتلت الملائكة كما أمرها الله.

ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين، يقتلون ويأسرون، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، وأخذوا غنائمهم، وكان من جملة من قتل من المشركين ممن سمى رسول الله ﷺ موضعه بالأمس: أبو جهل، وهو أبو الحكم عمرو بن هشام، قتله معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء، وتمم عليه عبد الله بن مسعود، فاحتز رأسه وأتى به رسول الله ﷺ، فَسُرَّ بذلك.

وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، فأمر بهم رسول الله ﷺ فسحبوا إلى القليب، ثم وقف عليهم ليلاً، فبكتهم وقرعهم، وقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس وأخرجتموني وآواني الناس» .

ثم إن رسول الله ﷺ استشار أصحابه في الأسارى: ماذا يصنع بهم؟ فأشار عمر بن الخطاب ﷺ بأن يقتلوا، وأشار أبو بكر ﷺ بالفداء، وقبل رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر([3])، فحلل لهم ذلك وعاتب الله في ذلك بعض المعاتبة في قوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}([4]).

رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً مظفراً منصوراً، قد أعلى الله كلمته، ومكن له، وأعز نصره، فأسلم حينئذ بشر كثير من أهل المدينة.

---

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، (ت: ٧٣٤هـ)،(٢٩٩/١).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٨.

(٣) شرف المصطفى، لعبد الملك بن مُحَمَّد النيسابوري (ت: ٤٠٧هـ)،(٣/ ١٦).

(٤) سورة الأنفال: الآيات٦٧—٦٨.

نتائج غزوة بدرٍ.

أولاً: نصر عظيم من الله للمؤمنين.

قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الملاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ. بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الملاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ}([1]).

ثانياً: هلاك أئمة الكفر.

فقد قتل المسلمون سبعين رجلاً من بينهم: أبو جهل لعنه الله، وعقبة بن أبي مُعيط أشقى القوم لعنه الله، وأمية بن خلف عدو الله، فرعون هذه الأمة وغيرهم ([2]) .

فأما أبو جهل فقد جاء في الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: لقد رأيتني يوم بدر في الصف بين غلامين حديثة أسنانهما، فتمنيتُ أن أكون بين أكبر منهما، قال: فغمزني الذي عن يميني وقال: يا عماه أين أبو جهل؟ فقلت: يا ابن أخي ومالك ولأبي جهل قال: يا عماه لقد أخبرت أنه كان يسب رسول الله! لئن لقيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. قال: ثم غمزني الذي عن يساري وأسرَّ إليَّ بمثلها، فلم أنشبْ أن رأيت أبا جهل يجول في الناس. فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه وكان الغلامان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء"([3]) .متفق عليه.

والظاهر أنهما تركاه مثخناً في جراحه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولذلك روى أبو داود في "سننه": أن عبد الله بن مسعود ﷺ مرَّ بأبي جهل صريعاً فوقف على رأسه وقال: أخزاك الله يا عدو الله، ثم جعل يجهز عليه بسيفه، قال: فلم تغن عني شيئاً فما زلت أضربه حتى سقط سيفه من يديه فضربته به حتى برد([4]) .

أما عقبةُ بن أبي معيط، فقد أمر النبي ﷺ بضرب عنقه لأنه كان من أشقى القوم وأكثرهم إيذاءً للنبي ﷺ، "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلتهُ"([5]) .

ثالثاً: الأسرى.

فقد أسر المسلمون سبعين رجلاً من صناديد قريش وقد استشار رسول الله ﷺ أصحابه فيهم فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم.

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٢٣ – ١٢٦.

(٢) لأنه كان يعذب المسلمين في مكة، ومنهم بلال ﷺ، فقد أسره عبد الرحمن بن عوف، وأسر معه ابنه علياً فلمحه بلال، فقال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، واستصرخ عليه الأنصار، فأعانوه على قتله هو وابنه. "فتح الباري" (٤/ ٤٨٠).

(٣) رواه البخاري (رقم ٣١٤١)، ومسلم (رقم ١٧٥٢).

(٤) صحيح أبي داود" (٣٣٥٧).

(٥) رواه أبو داود (٢٦٦٩).

رابعاً: الغنائم .

غنم المسلمون في بدر من الكفار غنائم كثيرة جداً، ووقع خلاف حول الغنائم إذ لم يكن حكمها قد شرع بعد، فنزل القرآن بتقسيمها كما نزل بمشروعيتها، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }(١)، وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٢)، وقال: { فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }(٣) .

خامساً: الشهداء .

واستُشهد من المسلمين في بدرٍ أربعة عشر رجلاً اتخذهم الله شهداء فضلاً منه سبحانه ونعمة قال الله عز وجل:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}(٤) .

وجاءت أم حارثة وقد قتل ولدها ضمن الأربعة عشر شهيداً، فقالت: يا رسول الله، أنبئني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك بكيت عليه بكاءً لم يُبكَ على غيره، فقال ﷺ "أهبلت يا فلانة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك قد حاز الفردوس الأعلى منها"(٥) .

غزوة بني قينقاع شوال من السنة الثانية للهجرة.

بنو قينقاع كانوا تجاراً وصاغة، جاء في سبب غزوهم أَنَّهُ «لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ، أظهرت بنو قَيْنُقَاعَ له الحسد فلما بلغه حسدهم جَمَعَهُم فِي سُوقِهم فَقَالَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلِ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا. فَقَالُوا يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنَّكَ لَنْ تَلْقَ مِثْلَنَا، فبينما هم على مجاهرتهم، إذ جاءت امرأة مسلمة إلى سوقهم، فجلست عند صائغ لأجل حليّ لها، فجاء رجل منهم فحل درعها إلى ظهرها، وهي لا تشعر، فلما قامت بدت عورتها، فضحكوا منها، فقام إليه رجل من المسلمين فقتله، ونبذوا العهد وتحصنوا في حصونهم، فغزاهم رسول الله ﷺ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة وكانوا نحو سبعمائة مقاتل(٦) .

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٦٩.

(٤) سورة آل عمران: الآيات ١٢٣ – ١٢٦.

(٥) سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، صالح طه عبد الواحد (١/ ٣٢٦ – ٣٣٠)، والحديث الأخير رواه البخاري (رقم ٥٨٠٩).

(٦) دلائل النبوة، للبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، (٣/ ١٧٣)، إمتاع الأسماع، للمقريزي (ت: ٨٤٥)، (٨/ ٣٤٦).

غزوة أحد في شوال من السنة الثالثة.

وهي وقعة امتحن الله عز وجل فيها عباده المؤمنين واختبرهم، وميز فيها بين المؤمنين والمنافقين، وذلك أن قريشاً حين قتلهم الله ببدر، وأصيبوا بمصيبة لم تكن لهم في حساب، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لعدم وجود أكابرهم، شرع يجمع قريشاً ويؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش، وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا، ثم أقبل بهم نحو المدينة، فنزل قريباً من جبل أحد بمكان يقال له: عينين.

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه: أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة؟ فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر إلى الإشارة بالخروج إليهم، وألحوا عليه ﷺ في ذلك، وأشار عبد الله بن أبي بن سلول بالمقام بالمدينة، وتابعه على ذلك بعض الصحابة، فألح أولئك على رسول الله ﷺ، فنهض ودخل بيته ولبس لأمته وخرج عليهم، وقد انثنى عزم أولئك فقالوا : يا رسول الله، إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل.

فقال: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»، وخرج إلى أحد في ألف، فلما كان ببعض الطريق انخزل عبد الله بن أبي في نحو ثلاثمائة إلى المدينة، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضي الله عنهما يوبخهم ويحضهم على الرجوع، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، واستقل رسول الله ﷺ بمن بقي معه حتى نزل، فجعل ظهره إلى أحد، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم، فلما أصبح تعبأ ﷺ للقتال في أصحابه، وكان فيهم خمسون فارساً، واستعمل على الرماة عبد الله بن جبير ﷺ، وكانوا خمسين وأمره وأصحابه أن لا يتغيروا من مكانهم، وأن يحفظوا ظهور المسلمين أن يؤتوا من قبلهم.

وأعطى اللواء مصعباً ﷺ، واستعرض الشباب يومئذ، فأجاز بعضهم ورد آخرين وتعبأت قريش يومئذ في ثلاثة آلاف، فيهم مائتا فارس، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

وأبلى يومئذ أبو دجانة سماك بن خرشة، وحمزة عم رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، وجماعة من الأنصار منهم: النضر بن أنس، وسعد بن الربيع ﷺ أجمعين.

وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار، فانهزموا راجعين حتى وصلوا إلى نسائهم، فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير ﷺ قالوا : يا قوم، الغنيمة الغنيمة، فذكرهم عبد الله بن جبير ﷺ تقديم رسول الله ﷺ إليه في ذلك، لكنهم ظنوا أن ليس للمشركين رجعة، وأنهم لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، فذهبوا في طلب الغنيمة، وكر الفرسان من المشركين فوجدوا تلك الفرجة قد خلت من الرماة فجاوزوها وتمكنوا، وأقبل آخرهم، فكان ما أراد الله، واستشهد من أكرمهم الله بالشهادة من أفاضل الصحابة، وتولى أكثرهم.

وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ فجرح في وجهه الكريم وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر، وهشمت البيضة على رأسه المقدس، ورشقه المشركون بالحجارة حتى وقع لشقه، وسقط في حفرة، فأخذ علي ﷺ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله ﷺ.

وقتل مصعب بن عمير ﷺ بين يديه، فدفع ﷺ اللواء إلى علي بن أبي طالب ﷺ، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ﷺ، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح ﷺ، حتى سقطت ثنيتاه، فكان الهتم يزينه، وامتص مالك بن سنان والد أبي

سعيد الخدري ﷺ الدم من جرحه ﷺ، وأدرك المشركون النبي ﷺ فدافع عنه عشرة من المسلمين فقتلوا، ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه ﷺ، وترس أبو دجانة سماك بن خرشة ﷺ علي النبي ﷺ بظهره، والنبل يقع فيه، وهو لا يتحرك ﷺ، ورمى سعد بن أبي وقاص ﷺ يومئذ رمياً مسدداً، فقال له رسول الله ﷺ : (ارم فداك أبي وأمي)، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان الظفري، فردها رسول الله ﷺ بيده الكريمة، فكانت أصح عينيه وأحسنهما.

وصرخ الشيطان إن مُحَمَّداً قد قتل، ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين، وتولى أكثرهم، ومر أنس بن النضر ﷺ بقوم من المسلمين قد ألقوا السلاح من أيديهم، فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا قتل رسول الله ﷺ فقال: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل الناس، ولقي سعد بن معاذ ﷺ فقال: يا سعد، والله إني لأجد ريح الجنة من قبل أحد، فقاتل حتى قتل ﷺ، ووجدت به سبعون ضربة، وجرح عبد الرحمن بن عوف نحواً من عشرين جراحةً، بعضها في رجله، فعرج منها حتى مات ﷺ.

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين، فكان أول من عرفه كعب بن مالك ﷺ، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ ! فأشار إليه ﷺ إن اسكت، واجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصمة الأنصاري وغيرهم ﷺ.

فلما أسندوا في الجبل، أدركه أبي بن خلف على جواد، ليقتله ﷺ، فلما اقترب تناول رسول الله ﷺ الحربة فطعنه بها، فجاءت في ترقوته، وكر عدو الله منهزماً فقال له المشركون: والله ما بك من بأس، فقال: والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، إنه قال لي: إنه قاتلي، ولم يزل به ذلك حتى مات بسَرف في طريق رجوعه إلى مكة لعنه الله.

وأراد ﷺ أن يعلو صخرة، فلم يستطع لما به ﷺ، فجلس طلحة تحته حتى صعد، وحانت الصلاة، فصلى جالساً، ثم مال المشركون إلى رحالهم، ثم استقبلوا طريق مكة منصرفين إليها، وكان هذا كله يوم السبت.

وقتل يومئذ من المشركين اثنان وعشرون، واستشهد من المسلمين نحو السبعين، منهم حمزة عم رسول الله ﷺ، قتله وحشي مولى بني نوفل، وقد أسلم بعد ذلك، وكان أحد قتلة مسيلمة الكذاب لعنه الله، وعبد الله بن جحش حليف بني أمية، ومصعب بن عمير، وعثمان بن عثمان المخزومي ولقبه شماس، هؤلاء أربعة من المهاجرين، والباقون من الأنصار ﷺ جميعاً، فدفنهم في دمائهم ولم يغسلهم ولم يصل عليهم يومئذ.

وفر يومئذ من المسلمين جماعة من الأعيان، وقد نص الله سبحانه على العفو عنهم(١)، في قوله تعالي : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ }(٢) .

(١) الفصول في السيرة، لابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)،(١ /١٤٤- ١٥٠)، سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، صالح طه عبد الواحد (١/ ٣٥٤) .

(٢) سورة آل عمران: آية ١٥٥.

غزوة بني النضير.

سبب الغزوة على الصحيح أن عمرو بن أمية الضمري فتك برجلين من بني كلاب أو من بني سليم يوم بئر معونة وهو يظن أنه قد أصاب ثأراً لأصحابه، فإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ ولم يعلم به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل، ثم نهض رسول الله ﷺ بنفسه إلى بني النضير ليستعين على ذينك القتيلين لما بينه وبينهم من الحلف، فقالوا: نعم، وجلس ﷺ هو وأبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه ﷺ، تحت جدار لهم، فاجتمعوا فيما بينهم وقالوا: من رجل يلقي بهذه الرحى على مُحَمَّد فيقتله؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش لعنه الله وأعلم الله رسوله ﷺ بما هموا به، فنهض ﷺ من وقته من بين أصحابه إلى المدينة، وجاء من أخبر أنه رآه ﷺ داخلاً في حيطان المدينة، فقام أبو بكر ومن معه فاتبعوه، فأخبرهم بما أعلمه الله من أمر يهود، فندب الناس إلى قتالهم، في ربيع الأول من السنة الرابعة وحاصرهم ست ليال منه .

وأرسل أُبي بن سلول إلى بني النضير: إنا معكم نقاتل معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فاغتروا، وتحصنوا في حصونهم، فأمر ﷺ بقطع نخيلهم وإحراقها، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويحقن دماءهم على أن لهم ما حملت إبلهم غير السلاح فأجابهم إلى ذلك، فتحمل أكابرهم كحيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق بأهليهم وأموالهم إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وقسم رسول الله أموالهم بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما، وقد كانت أموالهم مما أفاء الله على رسوله، فلم يوجف المسلمون بخيل ولا ركاب.

وفي هذه الغزوة أنزل الله سبحانه سورة الحشر، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يسميها سورة بني النضير قال تَعَالَى: { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}(١) ذَلِكَ لِهَدْمِهِمْ بُيُوتَهُمْ عَنْ نُجُفِ أَبْوَابِهِمْ إِذَا احْتَمَلُوهَا. {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} {وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ} وَكَانَ لَهُمْ مِنْ اللهِ نِقْمَةٌ {لَعَذّبَهُمْ فِي الدّنْيَا} أَيْ بِالسّيْفِ {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ} مَعَ ذَلِكَ. {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا}. وَاللّينَةُ مَا خَالَفَ الْعَجْوَةَ مِنْ النّخْلِ {فَبِإِذْنِ اللَّهِ} أَيْ فَبِأَمْرِ اللهِ قُطِعَتْ لَمْ يَكُنْ فَسَادًا، وَلَكِنْ كَانَ نِقْمَةً مِنْ اللهِ {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}(٢) .

غزوة الخندق في شوال من السنة الخامسة .

ابتلى الله فيها عباده المؤمنين وزلزلهم، وثبت الإيمان في قلوب أوليائه وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق، وفضحهم وقرعهم، ثم أنزل نصره، على عبده، وهزم الأحزاب وحده، وأعز جنده، ورد الكفرة بغيظهم، وكفى المؤمنين شر كيدهم، وذلك بفضله ومنَّةً منه، كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس على الصحيح من قولي أهل المغازي والسير، والدليل على ذلك أنه لا خلاف أن أُحُدَاً كانت في شوال من سنة ثلاث، وقد تقدم ما ذكره أهل العلم في المغازي أن أبا سفيان واعدهم العام المقبل بدراً، وأنه ﷺ خرج إليهم فأخلفوه تلك السنة في بلادهم، فتأخروا إلى هذا العام.

---

(١) سورة الْحَشْر: آية :٢ .

(٢) الروض الأنف للسهيلي (ت: ٥٨١هـ)، السلامي، (٦/ ١٦٢- ١٦٦)، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان (١/ ٢٣٤- ٢٣٦.

وسبب هذه الغزوة أن نفراً من يهود بني النضير الذين أجلاهم ﷺ من المدينة إلى خيبر خرجوا إلى قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ﷺ، فأجابوهم، ثم خرجوا إلى غطفان وأغروهم فأجابوهم أيضاً، فتكوَّن من قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن، عشرة آلاف.

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه أمر المسلمين بحفر خندق يحول بين المشركين وبين المدينة، وكان ذلك بإشارة سلمان الفارسي ﷺ، فعمل المسلمون فيه مبادرين هجوم الكفار عليهم، وكانت في حفره آيات مفصلة، وأعلام نبوة (١)، وشجاعة وقوة تواتر خبرها، عن أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: جَعَلَ المهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الخَنْدَقَ حَوْلَ المدِينَةِ، وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ، وَيَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الإِسْلاَمِ مَا بَقِينَا أَبَدَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُجِيبُهُمْ وَيَقُولُ:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ ... فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالمهَاجِرَهْ»(٢).

وعنِ البَرَاءِ ﷺ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا، إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»(٣) .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين. فتحصن بالجبل من خلفه – جبل سلع – وبالخندق أمامه. وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة.

وانطلق حيي بن أخطب إلى بني قريظة، فدنا من حصنهم فأبى كعب بن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتى فتح له. فلما دخل الحصن قال جئتك بعز الدهر. جئتك بقريش وغطفان وأسد، على قادتها لحرب مُحَمَّد قال بل جئتني والله بذل الدهر جئتني بجهام قد أراق ماءه. فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء.

---

(١) ما جاء في الصحيح عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ المِعْوَلَ فَضَرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ، أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي إِلَى البَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَتِ العَنَاقَ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ، وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: " كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قَالَ: قُلْ لَهَا: لاَ تَنْزِعِ البُرْمَةَ، وَلاَ الخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ، فَقَالَ: قُومُوا " فَقَامَ المهَاجِرُونَ، وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «ادْخُلُوا وَلاَ تَضَاغَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ» . صحيح البخاري (٥/ ١٠٨).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٢٥).

(٣) صحيح البخاري (٤/ ٢٧).

فلم يزل حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ ودخل مع المشركين. وسر بذلك المشركون وشرط كعب على حيي أنهم إن لم يظفروا بمحمد أن يجيء حتى يدخل معهم في حصنهم فيصيبه ما يصيبهم فشرط ذلك ووفى له.

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر فبعث إليهم السعدين – سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة – وخوات بن جبير. وعبد الله بن رواحة ليتعرفوا الخبر فلما دنوا معهم وجدوهم على أخبث ما يكون. وجاهروهم بالسب. ونالوا من رسول الله ﷺ .

فانصرفوا، وقد أمرهم ﷺ إن كانوا نقضوا أن لا يفتوا بذلك في أعضاد المسلمين، لئلا يورث وهناً، وأن يلحنوا إليه لحناً ـ أي لغزاً ـ فلما قدموا عليه، قال: ما وراءكم؟ قالوا: عضل والقارة، يعنون غدرهم بأصحاب الرجيع، فعظم ذلك على المسلمين، واشتد الأمر، وعظم الخطر، وكانوا كما قال الله تعالى: {هُنَالك ابتلى الْمُؤْمِنُونَ وزلزلوا زلزالاً شَدِيدًا }(١) .

وظهر النفاق وكثر، واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة لأجل بيوتهم، قالوا: إنها عورة، وليس بينها وبين العدو حائل، وهمَّ بنو سلمة بالفشل، ثم ثبَّت الله الطائفتين.

وثبت المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً، ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله به من الخندق بينه وبينهم، إلا أن فرسان من قريش منهم عمرو بن عبد ود العامري وجماعة معه أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم يمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه وجازوه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع ودعوا للبراز، فانتدب لعمرو بن عبد ود علي بن أبي طالب ﷺ فبارزه فقتله الله على يديه وكان عمرو لا يجاري في الجاهلية شجاعة، وأما الباقون فينطلقون راجعين إلى قومهم من حيث جاؤوا، وكان هذا أول ما فتح الله به من خذلانهم.

ولما طال هذا الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان، على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما، وجرت المراوضة على ذلك ولم يتم الأمر حتى استشار رسول الله السعدين في ذلك فقالا: يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرياً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف.

فقال ﷺ : (إ نما هو شيء أصنعه لكم) وصوب رأيهما في ذلك رضي الله عنهما، ولم يفعل من ذلك شيئاً.

ثم إن الله سبحانه وله الحمد صنع أمراً من عنده خذَّل به بينهم وفلَّ جموعهم، وذلك أن نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت، فقال ﷺ: «إنما أنت رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدعة» .

فذهب من حينه ذلك إلى بني قريظة ـ وكان حليفاً لهم في الجاهلية ـ فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال يا بني قريظة! إنكم قد حاربتم مُحَمَّداً، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا شمروا إلى بلادهم وتركوكم و مُحَمَّداً فانتقم منكم.

قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن.

قالوا لقد أشرت بالرأي.

---

(١) سورة الأحزاب: آية :١١ .

ثم نهض إلى قريش فقال لأبي سفيان ولهم: تعلمون ودي ونصحي لكم؟ قالوا نعم.

قال: إن يهود ندموا على ما كان منهم من نقض عهد مُحَمَّد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونه عليكم.

ثم ذهب إلى قومه غطفان فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلة السبت في شوال بعثوا إلى يهود: إنا لسنا بأرض مقام فانهضوا بنا غداً نناجز هذا الرجل، فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهناً، فلما جاءهم الرسل بذلك قالت قريش: صدقنا والله نعيم بن مسعود، وبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل لكم أحداً فاخرجوا معنا، فقال بنو قريظة: صدق والله نعيم، وأبوا أن يقاتلوا معهم.

وأرسل الله عز وجل على قريش ومن معهم الخور والريح تزلزلهم، فجعلوا لا يقر لهم قرار، ولا تثبت لهم خيمة ولا طنب، ولا قدر ولا شيء.

فلما رأوا ذلك ترحلوا من ليلتهم تلك.

وأرسل ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ يجمع له خبرهم، فوجدهم على أسوأ حال، ورأى أبا سفيان يُصْلِي ظهره بنار، ولو شاء حذيفة لقتله، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ ليلاً فأخبره برحيلهم([1]) .

فلما أصبح رسول الله ﷺ غداً إلى المدينة وقد وضع الناس السلاح فجاء جبريل عليه السلام يأمره بالخروج لبني قريظة، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلاَحَ، وَاغْتَسَلَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الغُبَارُ، فَقَالَ: وَضَعْتَ السِّلاَحَ فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَيْنَ» قَالَ، هَا هُنَا، وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، قَالَتْ: فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ([2]) .

غزوة بني قريظة.

نهض رسول الله ﷺ من وقته إلى يهود بني قريظة، وأمر المسلمين «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»([3])، وقد كان دخل وقتها، فراح المسلمون أرسالاً، وكان منهم من صلى العصر في الطريق، وقالوا: لم يرد رسول الله ترك الصلاة، إنما أراد تعجيل السير، وكان منهم من لم يصل حتى غربت الشمس، ووصل إلى بني قريظة، ولم يعنف ﷺ واحداً من الفريقين.

وأعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب ﷺ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ونازل حصون بني قريظة وحصرهم خمساً وعشرين ليلة، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا ويدخلوا مع مُحَمَّد في دينه، وإما أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا جرائد فيقاتلوا حتى يقتلوا عن آخرهم أو يخلصوا فيصيبوا بعد الأولاد والنساء، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه يوم سبت حيني أمن المسلمون شرهم، فأبوا عليه واحدة منهن.

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٢١)،السيرة النبوية لابن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، (٣/ ١٧٨-١٨٩)، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبو شُهبة (ت: ١٤٠٣هـ)،(٢/ ٢٧٥- ٢٨٧).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٢١).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ١٥) .

وكان قد دخل معهم في الحصن حيي بن أخطب حين انصرفت قريش، لأنه كان أعطاهم عهداً بذلك حتى نقضوا العهد وجعلوا يسبون رسول الله ﷺ ويسمعون أصحابه بذلك، فأراد رسول الله ﷺ أن يخاطبهم، فقال له علي ﷺ: لا تقرب منهم يا رسول الله خشية أن يسمع منهم شيئاً فقال: « لو قد رأوني لم يقولوا شيئاً»، فلما رأوه لم يستطع منهم أحد أن يتكلم بشيء.

ولما نزل بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ قالت الأوس: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت وهم حلفاء إخوتنا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فقال: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى، قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ» ، وكان سعد إذ ذاك قد أصابه جرح في أكحله، وقد ضرب له رسول الله ﷺ خيمةً في المسجد، ليعوده من قريب، فبعث إليه ﷺ فجيء به وقد وطؤوا له على حمار، وإخوته من الأوس حوله محيطون به، وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فلما أكثروا عليه، قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم! ! فرجع رجال من قومه إلى بني عبد الأشهل فنعوا إليهم بني قريظة، فلما دنا من رسول الله ﷺ، قال: «قوموا إلى سيدكم» فقام إليه المسلمون، فقالوا: يا سعد، قد ولاك رسول الله ﷺ الحكم في بني قريظة، فقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت؟ قالوا: نعم.

قال: وعلى من هاهنا؟ وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «نعم» .

فقال سعد: إني أحكم فيهم أن يقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» .

فأمر رسول الله ﷺ أن يقتل من أنبت منهم، ومن لم يكن أنبت ترك، فضرب أعناقهم في خنادق حفرت في سوق المدينة اليوم، وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، وقيل: ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، ولم يقتل من النساء أحداً سوى امرأة واحدة وهي بنانة امرأة الحكم القرظي، لأنها كانت طرحت على رأس خلاد بن سويد رحى فقتلته لعنها الله.

وقسم أموال بني قريظة على المسلمين للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم([1]) .

(١) صحيح البخاري: (٤/ ٦٧) .

صلح الحديبية.

خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة من السنة السادسة معتمراً في ألف ونيف قيل: وخمسمائة، وقيل: وأربعمائة، وقيل: وثلاثمائة، وقيل: غير ذلك، فلما علم المشركون جمعوا أحابيشهم وخرجوا من مكة صادّين له عن الاعتمار هذا العام، وأرسلوا خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل إلى كراع الغميم لردهم قبل دخول الأرض الحرام، فغيَّر ﷺ الطريق حتى انتهى إلى الحديبية، وتراسل هو والمشركون حتى جاء سهيل بن عمرو فصالحه على: أن يرجع عنهم عامهم هذا وأن يعتمر من العام المقبل، فأجابه ﷺ إلى ما سأل، لما جعل الله عز وجل في ذلك من المصلحة والبركة، وكره ذلك جماعة من الصحابة ﷺ، منهم: عمر بن الخطاب ﷺ، وراجع أبا بكر الصديق في ذلك، ثم راجع النبي ﷺ، فكان جوابه ﷺ، كما أجابه الصديق ﷺ، وهو أنه عبد الله ورسوله وليس يضيعه، وهو ناصره.

وقد استقصى البخاري هذا الحديث في صحيحه. عن الزُّهْرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ، يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالاَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ» فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ: فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ "، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لاَ حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، أَلَسْتُمْ بِالوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ، فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ

الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالمغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ المِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: المغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ المغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا المالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»، ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا فُلاَنٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ» فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلاَءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» – قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» – فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لاَ تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ المسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى المشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ المسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «بَلَى فَافْعَلْ»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو

جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ المسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى المشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ»، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ»، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ، – قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ –: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا، قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ المؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ}(١) حَتَّى بَلَغَ بِعِصَمِ الكَوَافِرِ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ، كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلاَنُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى المدِينَةَ، فَدَخَلَ المسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا» فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ البَحْرِ قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ، لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ}(٢) حَتَّى بَلَغَ

(١) سورة الممتحنة: آية ١٠.

(٢) سورة الفتح: آية ٢٤.

{الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ}(١) وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البَيْتِ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: " مَعَرَّةٌ العُرُّ: الجَرَبُ، تَزَيَّلُوا: تَمَيَّزُوا، وَحَمَيْتُ القَوْمَ: مَنَعْتُهُمْ حِمَايَةً، وَأَحْمَيْتُ الحِمَى: جَعَلْتُهُ حِمًى لاَ يُدْخَلُ، وَأَحْمَيْتُ الحَدِيدَ وَأَحْمَيْتُ الرَّجُلَ: إِذَا أَغْضَبْتَهُ إِحْمَاءً "(٢).

غزوة خيبر.

ولما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية إلى المدينة أقام بها إلى المحرم من السنة السابعة، ثم خرج إِلَى خَيْبَرَ، وَمعه ألف وَأَرْبَعمِائَة راجل ومائتي فَارس(٣)، وكان وصوله ﷺ إِلَيْهَا لَيْلاً وَكَانَ إِذَا طَرَقَ قَوْماً لَمْ يَغِرْ عَلَيْهِمْ حَتى يُصْبحُ فَإِنْ سَمِعَ أذاناً أمْسَكَ وإِنْ لَمْ يَكُونُوا يُصَلّون أغارَ عَلَيْهِمْ حين يُصْبحُ فَلَمَّا أصْبَحَ رَكبَ ورَكِبَ المسْلمُونَ وَخَرَجَ أهلُ القَرْيَةِ ومَعَهُمْ مَكَاليهم ومَسَاحِيهم فَلَمَّا رَأوْا رسولَ الله ﷺ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ خربَت خيْبَر إنّا إِذَا نزَلْنَا بِسَاحةِ قَوْم فَسَاءَ صَبَاحُ المنْذَرِين»(٤).

اعتصم اليهود بحصونهم فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة؛ ثم بعث أبا بكر ﷺ فلم يفتح عليه، ثم بعث عمر ﷺ فلم يفتح عليه، فقَالَ ﷺ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطِي، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقَالَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ»، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ قَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»(٥).

فخَرَجَ عَلِيٌّ ﷺ فلقي مَرْحَباً بْنُ الْحَارِثِ الْيَهُودِيُّ يشير بسيفه وَهُوَ يَقُولُ بأعلى صوته:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

أَطْعَنُ أَحْيَانًا وَحِينًا أَضْرِبُ إِذَا اللُّيُوثُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبْ(٦).

فانطلق إليه عَليّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ(٧).

---

(١) سورة الفتح: آية ٢٤.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٩٣).

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص: ٢٠٤).

(٤) مسند الشافعي – ترتيب سنجر (٤/ ٣١).

(٥) صحيح ابن حبان (ت : ٣٥٤هـ)، (١٥/ ٣٧٧)، فضائل الصحابة لابن حنبل (٢/ ٦٠٧).

(٦) مسند أبي يعلى الموصلي (ت : ٣٠٧هـ)، (٣/ ٣٨٥).

(٧) صحيح مسلم (٣/ ١٤٣٣).

وقد أَهْدَت الْيَهُودِيَّة زَيْنَبُ بِنْتُ الْحَارِثِ، امْرَأَةُ سَلّامِ بْنِ مِشْكَمٍ، شَاةً مَصْلِيّةً، وَقَدْ سَأَلَتْ أَيّ عُضْوٍ مِنْ الشّاةِ أَحَبّ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقِيلَ لَهَا: الذّرَاعُ، فَأَكْثَرَتْ فِيهَا مِنْ السّمّ، ثم سَمّتْ سَائِرَ الشّاةِ، ثُمّ جَاءَتْ بِهَا؛ فَلَمّا وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَنَاوَلَ الذّرَاعَ، فَلَاكَ مِنْهَا مُضْغَةً، فَلَمْ يُسِغْهَا، وَمَعَهُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا كَمَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَأَمّا بِشْرٌ فَأَسَاغَهَا؛ وَأَمّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَفَظَهَا، ثُمّ قَالَ: إنّ هَذَا الْعَظْمَ لَيُخْبِرُنِي أَنّهُ مَسْمُومٌ، ثُمّ دَعَا بِهَا، فَاعْتَرَفَتْ، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بَلَغْتَ مِنْ قَوْمِي مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْك، فَقُلْت: إنْ كَانَ مَلِكًا اسْتَرَحْتُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ نَبِيّا فَسَيُخْبَرُ، قَالَ: فَتَجَاوَزَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ وَمَاتَ بِشْرٌ مِنْ أَكْلَتِهِ الّتِي أَكَلَ.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدّثَنِي مَرْوَانُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلّى، قَالَ:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَ فِي مَرَضِهِ الّذِي تُوُفّيَ فِيهِ، وَدَخَلَتْ أُمّ بِشْرٍ بِنْتُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ تَعُودُهُ: يَا أُمّ بِشْرٍ، إنّ هَذَا الْأَوَانَ وَجَدْتُ فِيهِ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ الْأَكْلَةِ الّتِي أَكَلْت مَعَ أَخِيك بِخَيْبَرَ. قَالَ: فَإِنْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ لَيَرَوْنَ أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ شَهِيدًا، مَعَ مَا أَكْرَمَهُ اللهُ بِهِ مِنْ النّبُوّةِ(١).

وقدم عليه ﷺ في غزوة خيبر بعد فراغهم من القتال جعفر بن أبي طالب ﷺ وأصحابه ممن بقي مهاجراً بأرض الحبشة، يزيدون على السبعين، فَقام ﷺ وقبل ما بين عينيه ثم قَالَ: «لَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ»(٢).

بعث مؤتة .

وفِي جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ ثَمَانٍ كانت غزوة مؤتة، وهي قرية من أرض الشام، وسبب هذه الغزوة انفرد به الواقدي وهو : أن رسول الله ﷺ حين بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلَى مَلِكِ بُصْرَى، عَرَضَ لَهُ شُرَحْبِيلُ بْنُ عَمْرٍو الْغَسّانِيّ – أحد أمراء الشام الموالين للروم – وضَرَبَ عُنُقَهُ صَبْرًا ،فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ، وجهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل(٣)، أمَّر عليهم مولاه زيد بن حارثة ﷺ وقال ﷺ: «إنْ قُتِلَ زَيْدٌ، فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ»(٤).

خرج ﷺ يودعهم إلى بعض الطريق، ثم انطلقوا حتى إذا كانوا بمَعَانَ بلغهم أن هرقل قد خرج إليهم في مائة ألف ومعه مالك بن زافلة في مائة ألف أخرى من نصارى العرب من لخم وجذام وغيرهم، فَلَمّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ أَقَامُوا لَيْلَتَيْنِ يُفَكّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ وَقَالُوا: نَكْتُبُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فنُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوّنَا، فَإِمّا أَنْ يَمُدّنَا بِالرّجَالِ وَإِمّا أَنْ يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ فَنَمْضِي لَهُ. قَالَ" فَشَجّعَ النّاسَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ، وَقَالَ يَا قَوْمِ وَاَللهِ إنّ الّتِي تَكْرَهُونَ لَلّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشّهَادَةَ وَمَا نُقَاتِلُ النّاسَ بِعَدَدٍ وَلَا قُوّةٍ وَلَا كَثْرَةٍ مَا نُقَاتِلُهُمْ إلّا بِهَذَا، الدّينِ الّذِي أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ فَانْطَلِقُوا فَإِنّمَا هِيَ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إمّا ظُهُورٌ وَإِمّا شَهَادَةٌ. قَالَ فَقَالُوا قَدْ وَاَللهِ صَدَقَ ابْنُ رَوَاحَةَ" ومَضَوا(٥)، ثم التقى الجمعان وقاتلوا قتالاً عظيماً، وقتل أمير جيش

(١) الروض الأنف للسهيلي (٦/ ٥١١).

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم (ت : ٤٠٥هـ)، (٣/ ٢٣٠).

(٣) مغازي الواقدي (ت : ٢٠٧هـ)، (٢/ ٧٥٥)، ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (ص: ١٨٣)، سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، صالح طه عبد الواحد،(١/ ٤٨٤ ، ٤٨٥).

(٤) شرح السنة للبغوي، (ت : ٥١٦هـ)، (١١/ ٣).

(٥) الروض الأنف للسهيلي (ت: ٥٨١هـ)، تحقيق: السلامي، (٧/ ١٦٧)

المسلمين زيد بن حارثة ﷺ والراية في يده، فتناولها جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، الذي نَزَلَ عَنْ فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاءَ فَعَقَرَهَا ثُمَّ مَضَى وَهُوَ يَقُولُ:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَـــا طَـيِّـبَةٌ بَـــارِدَةٌ شَرَابُهَـــا

وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا عَلَيَّ إِنْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا(١).

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَحَدَّثَنِي مَنْ أَثِق بِهِ من أهل الْعلم أَن جَعْفَر أَخَذَ اللِّوَاءِ بِيَمِينِهِ فَقُطِعَتْ، فَأَخَذَهُ بِشِمَالِهِ فَقُطِعَتْ، فَاحْتَضَنَهُ بِعَضُدَيْهِ حَتَّى قُتِلَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَأَثَابَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ جَنَاحَيْنِ فِي الْجَنَّةِ يَطِيرُ بِهِمَا حَيْثُ شَاءَ، وَيُقَالُ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الرُّومِ ضَرَبَهُ يَوْمَئِذٍ ضَرْبَةً فَقَطَعَهُ نِصْفَيْنِ(٢).

قال عَبْدُاللَّهِ بنُ عمر رضي الله عنهما: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِي القَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ، مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ "(٣) .

ثم أخذ الرَّايَةَ عَبْدُ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ الأنصاري ﷺ، فوجد من نفسه كراهة للموت فقَالَ يخاطبها:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَـنْزِلِـــنَّهْ طَـــائِعَةً أَوْ لَـــتُكْرَهِنَّهْ

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّهْ مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ

وَقَالَ أَيْضًا:

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِيتِ

وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُ مَا هُـــدِيتِ

وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيتِ

ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ﷺ(٤).

ثم حمل الراية خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد ﷺ فانحاز بالمسلمين، وتلطف حتى خلص بهم من العدو، ففتح الله على يديه كما أخبر بذلك كله رسول الله ﷺ أصحابه الذين بالمدينة يومئذ وهو قائم على المنبر، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: " أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدٌ عَنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ(٥) .

ومع كثرة هذا العدو وقلة عدد المسلمين بالنسبة إليهم لم يقتل من المسلمين خلق كثير على ما ذكره أهل السير، فإنهم لم يذكروا فيما سموا إلا نحو العشرة ولعل السبب في ذلك يرجع بعد توفيق الله إلى أن خالداً بن الْوَلِيد ﷺ لما أصبح جعل مقدمة الجيش ساقة وساقته مقدمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، فظن المشركون مجيء مدد للمسلمين فرعبوا وانهزموا

(١) السنن الكبرى للبيهقي(ت ٤٥٨هـ)، (٩/ ٢٦٠).

(٢) الفصول لابن كثير (٣/ ٤٦١).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ١٤٣).

(٤) السنن الكبرى للبيهقي(ت ٤٥٨هـ)، (٩/ ٢٦٠).

(٥) شرح السنة للبغوي، (ت : ٥١٦هـ)، (١٤ / ٢٥).

فقتلوا قتلة لم يقتلها قوم، وكانت مدة القتال سبعة أيام، أبلى خلالها المسلمون بلاءً حسناً(١)، فقد صح عن خَالِدَ بْنَ الْوَلِيد قوله: «لَقَدِ انْدَقَّ فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَةٌ»(٢).

فتح مكة.

سبب الفتح أن قبيلة خزاعة دخلت عام الحديبية في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وضربت المدة إلى عشر سنين، وأمن الناس بعضهم بعضاً، وبعد أن مضى من المدة سنة وتسعة أشهر فقط اعتدى بنو بكر على خزاعة عند بئر ماء لهم يقال له الوتير، فاقتتلوا هناك، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وساعدهم بعضهم بنفسه خفية، وفرت خزاعة إلى الحرم فاتبعهم بنو بكر إليه وقتلوا منهم، فانتفض عهد قريش بذلك.

وعنئذٍ خرج عمرو بن سالم الخزاعي وبديل بن ورقاء الخزاعي وقوم من خزاعة حتى أتوا رسول الله ﷺ فأعلموه بما كان من قريش واستنصروه عليهم، فأجابهم ﷺ وبشرهم بالنصر.

ندمت قريش على ما كان منهم، فبعثوا أبا سفيان ليجدد العقد مع النبي ﷺ ويزيد في الأجل، فلما كان بعسفان لقي بديل بن ورقاء وهو راجع من المدينة، فكتمه بديل ما كان من رسول الله ﷺ، وذهب أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ و﵂، فلما أراد أن يقعد على فراش رسول الله ﷺ منعته، فقال: والله يا بنية لقد أصابك بعدي شر، ثم جاء رسول الله ﷺ فعرض عليه ما جاء له، فلم يجبه ﷺ بكلمة واحدة.

ثم ذهب إلى أبي بكر ﵁ فطلب منه أن يكلم رسول الله ﷺ فأبى عليه، ثم جاء عمر ﵁ فأغلظ له، وقال: أنا أفعل ذلك؟ ! والله لو لم أجد إلا الذر لقاتلتكم به، وجاء علياً ﵁ فلم يفعل، وطلب من فاطمة بنت رسول الله ﷺ و ﵂ أن تأمر ولدها الحسن أن يجير بين الناس، فقالت: ما بلغ بني ذلك، فرجع إلى مكة فأعلمهم بما كان منهم.

ثم شرع رسول الله ﷺ في الإعداد لفتح مكة، وسأل الله عز وجل أن يعمي على قريش الأخبار، فاستجاب له ربه تبارك وتعالى، ولذلك لما كتب حاطب بن أبي بلتعة ﵁ كتاباً إلى أهل مكة يعلمهم فيه بما همَّ به رسول الله ﷺ من القدوم على قتالهم وبعث به مع امرأة، وقد تأول في ذلك مصلحةً تعود عليه رحمه الله، وقبل ذلك منه رسول الله ﷺ وصدقه، لأنه كان من أهل بدر: وبعث رسول الله ﷺ علياً والزبير والمقداد ﵃، فردوا تلك المرأة من روضة خاخ، وأخذوا منها الكتاب وكان هذا من إعلام الله عز وجل نبيه ﷺ بذلك ومن أعلام نبوته ﷺ .

خرج ﷺ لعشر خلون من رمضان في السنة الثامنة معه عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، مُزينة وبنو سليم، ولقيه عمه العباس ﵁ بذي الحليفة، وقيل: بالجحفة فأسلم، ورجع معه ﷺ، وبعث ثقله إلى المدينة.

وأما قريش فعمى الله عليها الخبر، إلا أنهم قد خافوا وتوهموا من ذلك، فلما كانت تلك الليلة خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ، فَرَآهُمْ نَاسٌ مِنْ حَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذُوهُمْ، فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ، فَلَمَّا سَارَ، قَالَ لِلْعَبَّاسِ: " احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ

(١) السيرة الحلبية، لبرهان الدين علي بن إبراهيم الحلبي (ت: ١٠٤٤هـ)، (٣/ ٩٧).

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم (ت : ٤٠٥هـ)،(٣ / ٤٤).

الْجَبَلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ، فَجَعَلَتِ الْقَبَائِلِ تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا، قَالَ: يَا عَبَّاسُ، مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الأَنْصَارُ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَهُ الرَّايَةُ، وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمُ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِلْعَبَّاسِ: يَا عَبَّاسُ، حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ، ثُمّ جَاءَتْ كُتَيْبَةٌ، وَهِيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، قَالَ: مَا قَالَ؟ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ(١) .

ودخل رسول الله ﷺ مكة وهو راكب على ناقته وعلى رأسه المغفر، ورأسه يكاد يمس مقدمة الرحل من تواضعه لربه عز وجل «يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ»(٢)، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَذَقْنُهُ عَلَى رَحْلِهِ متخشعاً (٣) .

وقد أمن ﷺ الناس بقوله «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابهُ فَهُوَ آمِنٌ»(٤)، إلا جماعة ممن شاق الله والرسول.

نزل ﷺ في بيت أم هانئ فَوَضَعَتْ لَهُ مَاءً فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ صَلَّى ثَمَانِ رَكَعَاتٍ صَلَاةَ الضُّحَى(٥)، وقيل: صلاة الفجر، ثم خرج ﷺ إلى البيت فطاف به طواف قدوم، ولم يسع، لأنه لم يكن معتمراً.

ولما دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مكَّةَ، كان حَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}(٦)، {جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}(٧) ،(٨) .

وخطب ﷺ غداة يوم الفتح وبين حرمة مكة وأنها لم تحل لأحد قبله ولا تحل لأحد بعده، وقد أحلت له ساعة من نهار، وهي غير ساعته تلك حرام، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: "إن هذا البلد حرام حرَّمه الله، لم يحل فيه القتلُ لأحدٍ قبلي، وأُحلَّ لِي ساعةً، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُنَفَّر صيدُه، ولا يُعْضَدُ شوكُه، ولا يَلتقط لُقَطتَه إلاَّ مَن عرفها، ولا يُخْتَلى خَلاَه"، فقال العباس: يا رسول الله، إلاَّ الإذْخِر، فإنه لبيوتهم ولقَيْنِهم، فقال: "إلاَّ الإذخر، ولا هجرة، ولكن جهادٌ ونية، وإذا استُنْفرتم فانفِروا"(٩)، ثم أَقَامَ خَمْسَ عَشْرَةَ يَقْصُرُ الصَّلَاةَ حَتَّى سَارَ إِلَى حُنَيْنٍ»(١٠) .

---

(١) شرح السنة للبغوي، (ت : ٥١٦هـ)، (١١/ ١٤٨- ١٥٠).

(٢) صحيح مسلم (ت: ٢٦١هـ)،(١/ ٥٤٧).

(٣) المستدرك للحاكم ،(٣/ ٣٥٢).

(٤) صحيح مسلم (ت: ٢٦١هـ)،(٣/ ١٤٠٧).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة(ت: ٢٣٥هـ)، (٢/ ١٧٤).

(٦) سورة الإسراء: آية ٨١.

(٧) سورة سبأ: آية ٤٩.

(٨) صحيح مسلم (ت: ٢٦١هـ)،(٣/ ١٤٠٨).

(٩) صحيح ابن حبان (ت : ٣٥٤هـ)،(٩/ ٣٦) .

(١٠) مصنف ابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥هـ)، (٧/ ٤٠٨).

غزوة حنين.

لما بلغ فتح مكة قبيلتي ثقيف هوازن، وغيرهم من مشركي العرب جمعهم مالك بن عوف النضري ثُمَّ سَارَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَسَاقَ مَعَهُ الْأَمْوَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَبْنَاءَ والماشية، ليحموا بذلك في القتال، فنزلوا بأوطاس فقال لهم دريد: مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ فقالوا: ساق مالك مع الناس أموالهم وعيالهم، فقال: أين مالك؟ فقيل له: هو ذا، فسأله دريد: مَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ تَسُوقَ مَعَ النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ؟، قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَ خَلْفَ كُلِّ رَجُلٍ أَهْلَهُ وَأَمْوَالَهُ لِيُقَاتِلَ عَنْهُمْ، قَالَ: فَانْقَضَّ بِهِ دُرَيْدٌ، وَقَالَ: يَا رَاعِيَ ضَأْنٍ وَاللهِ وَهَلْ يَرُدُّ وَجْهَ الْمُنْهَزِمِ شَيْءٌ؟ إِنَّهَا إِنْ كَانَتْ لَكَ لَمْ يَنْفَعْكَ إِلَّا رَجُلٌ بِسَيْفِهِ وَرُمْحِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ فُضِحْتَ فِي أَهْلِكَ(١) .

لَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بادرهم بالخروج لغزو هذه القبائل المحتشدة قبل أن يداهموا المسلمين في مكة المكرمة، وكان عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف صحبوه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح، واستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية بن خلف دروعاً، قيل: مائة، وقيل: أربعمائة.

فلما أتى وادى حنين، وهو واد حدور من أودية تهامة، إِذْ فاجأتهم كَتَائِبُ هوازن في عماية الصبح مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ فَلَمْ يَنْتَظِرِ النَّاسُ أَن ينهزموا رَاجِعِينَ (٢)، لا يلوى أحد على أحد، وثبت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه منهم: أبو بكر، وعمر، وعلى، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه جعفر، والفضل ابن العباس، وقثم بن العباس، وجماعة من غيرهم؛ كان النبي ﷺ على بغلته البيضاء، والعباس آخذ بحكمتها(٣)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ هَوَازِنَ جَاءَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِالشَّاءِ وَالإِبِلِ مَعَهُمْ، فَجَعَلُوهَا صَفَّيْنِ: لِيُكَثِّرُوا عَلَى رَسُولِ اللهﷺ، فَالْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَوَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ كَمَا قَالَ الله –جَلَّ وَعَلا –، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ". فَهَزَمَ الله الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَضْرِبْ بِسَيْفٍ وَلَمْ يَطْعَنْ بِرُمْح، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذ: "مَنْ قَتَلَ كَافِراً فَلَهُ سَلَبُهُ". فَقَتَلَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ عِشْرِينَ رَجُلاً وَأَخَذَ أَسْلابَهُمْ(٤).

وأمر العباس أن ينادي الناس بِصَوْتٍ لَهُ جَهِيرٍ أَوْ جَهْوَرِيٍّ فَقَالَ أَيْنَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ أَيْنَ أَصْحَابُ سورة الْبَقَرَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ يقُولُ : أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنا ابْن عبد المطلب، فلما سمعوا الصوت بادروا بالرجوع، إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، (٥/ ١٢١، ١٢٢).

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: للهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) (١ / ٤١٧)، وعماية الصبح: أي قبل انتشار الضوء.

(٣) حكمة الدابة: ولجامها والشكيمة التي تكون على أنف الحصان.

(٤) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: للهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) تحقيق :حسين أسد (٥/ ٣٤٩).

حواليهم نهم نحو المائة، استقبلوا هوازن، واشتدت الحرب بينهم، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب ولم يملكوا أنفسهم، ورماهم بقبضة حصى بيده، فما منهم أحد إلا أصابته، وفي ذلك يقول جل ثناؤه: وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى(١).

وانهزمت هوازن، وملك النبي ﷺ الأموال والعيال(٢)، ثم وزع ﷺ الغنائم بطريقة لم تكن مألوفة للصحابة من قبل، فقد خص ﷺ المؤلفة قلوبهم بالحظ الأوفر منها(٣)، ولقد أحدث ذلك التقسيم في نفوس أجلاء الصحابة لا سيما الأنصار شيئاً وقال بعضهم مقالة بلغت رسول الله ﷺ .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْغَنَائِمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَقَسَمَ لِلْمُتَأَلِّفِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَفِي سَائِرِ الْعَرَبِ مَا قَسَمَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ وَاللهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْمَهُ، فَمَشَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ: فِيمَ؟ فَقَالَ: فِيمَا كَانَ مِنْ قَسْمِكَ هذه الْغَنَائِمَ فِي قَوْمِكَ، وَفِي سَائِرِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ فَقَالَ: مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي مَا أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا فِيهَا فَأَعْلِمْنِي» ، فَخَرَجَ سَعْدٌ فَصَرَخَ فِيهِمْ فَجَمَعَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَحَدٌ إِلَّا اجْتَمَعَ لَهُ أَتَاهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ حَيْثُ أَمَرْتَنِي أَنْ أَجْمَعَهُمْ فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ تَعَالَى وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» قَالُوا بَلَى ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟» فَقَالُوا: وَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ؟ الْمَنُّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَقَالَ: «أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: جِئْتَنَا طَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ، وَخَائِفًا فَأَمَّنَّاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ»، فَقَالُوا: الْمَنُّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى مَا قَسَمَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ إِلَى رِحَالِهِمْ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ فو الذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ

---

(١) سورة الأنفال الآية: ١٧.

(٢) جوامع السيرة ط العلمية (١ / ١٨٩، ١٩١).

(٣) أعطى رسول الله ﷺ نصيبه من الخمس المؤلفة قلوبهم؛ وهم: أبو سفيان بن حرب بن أمية، وابنه معاوية، وحكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى بن أبي قيس، والعلاء بن جارية الثقفي، حليف بني زهرة، وصفوان بن أمية الجمحي، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، والأقرع بن حابس التميمي؛ أعطى كل واحد من هؤلاء مائة بعير. وأعطى عباس بن مرداس السلمي أقل من ذلك، فقال شعرا يخاطب به رسول الله ﷺ، فأتم له المائة.

لَكُنْتُ امرءًا من الْأَنْصَارِ، اللهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ» ، فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِاللهِ وَرَسُولِهِ قَسْمًا ثُمَّ انْصَرَفَ وَتَفَرَّقُوا»(١) .

واستشهد يوم حنين جماعة من المسلمين: منهم أيمن بن عبيد، هو ابن أم أيمن، أخو أسامة بن زيد لأمه، وكانت وقعة حنين فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ من السنة الثامنة من الهجرة(٢) .

غزوة تبوك.

هذه آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه، وكانت في رجب من سنة تسع من الهجرة، حيث أذن رسول الله ﷺ بغزو الروم؛ وذلك في عام جدب وحرٍ شديدٍ حين طاب أول الثمر.

وكان ﷺ لا يكاد يغزو غزوة إلا ورَّى بغيرها، إلا غزوة تبوك، فإنه ﷺ بيَّنها للناس، لبعد الشُّقة، وقوة العدو.

وقد أصاب المسلمين قحط ومشقة شديدة، عَنِ ابْنِ عَباس: أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطابِ: حدثنا عَنْ شَأْنِ الْعُسْرَةِ. قَالَ: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ. فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً أَصَابَنَا فِيهِ عطشٌ حَتى ظَنَنا أَنَ رِقابنا سَتَنْقَطِعُ، حتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلا يَرْجِعُ حَتَّى نَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ حَتى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ، وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصديق: يَا رسول الله، قَدْ عَوَّدَكَ اللهُ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا، فَادْعُ. قَالَ: "أتحب ذلِكَ؟ ". قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَرَفَعَ يَدَيْهِ ﷺ، فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى أَظلَّتْ سَحَابَةٌ، ثُمّ سَكَبَتْ، فَمَلَؤُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتِ الْعَسْكَرَ(٣) .

واستأذن بعض المنافقين بغير عذر، فأذن لهم رسول الله ﷺ، وفيهم نزلت: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي، أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا »(٤) .

وكان نفر من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عن الغزو، فبعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر، وأمرهم أن يحرقوا عليهم البيت.

وتسابق الصحابة رضوان الله عليهم في تجهيز الجيش، فأنفق عثمان ﷺ نفقة عظيمة، روى أنه حمل في هذه الغزوة على تسعمائة بعير، ومائة فرس، وجهز رُكَّابها، وروى أيضا أنه أنفق فيها ألف دينار، عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ عُثْمَانَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بدَنَانِيرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: «مَا عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا»(٥).

وخرج مع رسول الله ﷺ كل من كانت له قدرة على الجهاد حتى بلغ الجيش نحواً من ثلاثين ألفاً، ولم يتخلف إلا النساء والأطفال، ومن عذره الله من الرجال ممن لا يجد ظهراً يركبه أو نفقة تكفيه، كما تخلف المنافقون كفراً وعناداً وكانوا نحو الثمانين رجلاً.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ت: ٤٥٨هـ)،(٥/ ١٧٦- ١٧٨).

(٢) مسند ابن الجعد البغدادي (ت: ٢٣٠هـ) ، (ص: ٤٩٦).

(٣) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: لأبي الحسن الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) تحقيق : حسين أسد (٥/ ٣٥٠).

(٤) سورة التوبة: الآية ٤٩.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥هـ)، (٧/ ٤٢٤).

وتخلف من المسلمين ثلاثة بغير عذر ذكر الله قصتهم وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية ﷺ وقد اعترفوا بمعصيتهم ثم تابوا فتاب الله عليهم بعد عودته ﷺ بخمسين ليلة، سار رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، ولما انتهى إلى هناك لم يلق عدواً حيث جبن الروم عن لقائه ﷺ، ورأى أن دخولهم إلى أرض الشام بهذه السنة يشق عليهم، فعزم على الرجوع.

وصالح الرسول ﷺ صاحب أيلة، ثم رجع في رمضان من سنة تسع، وأنزل الله فيها عامة سورة التوبة(١).

حجة الوداع.

صلى رسول الله ﷺ الظهر يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة في السنة العاشرة بالمدينة، ثم خرج منها بمن معه من الصحابة ومن تجمع من الأعراب، فصلى العصر بذي الحليفة ركعتين، وبات بها.

وأتاه آت من ربه عز وجل يأمره أن يقرن الحج مع العمرة، فأصبح ﷺ فأخبر الناس بذلك، ثم اغتسل وصلى في المسجد ركعتين، وأهل بحجة وعمرة معاً.

ساق النبي ﷺ الهدي من ذي الحليفة، وأمر من كان معه هدي أن يهل مثله، ثم سار ﷺ والناس بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله أمماً لا يحصون كثرة، كلهم قدم ليأتم به ﷺ .

فلما دخل البيت طاف للقدوم، ثم سعى بين الصفا والمروة، وأمر الذين لم يسوقوا هدياً أن يفسخوا حجهم إلى عمرة ويتحللوا حلاً تاماً، ثم يهلوا بالحج وقت خروجهم إلى منى، ثم قال: ﷺ «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة» ثم خرج إلى منى فبات بها وكانت ليلة التاسع من ذي الحجة.

ثم أصبح فسار إلى عرفة وخطب خطبة عظيمة، شهدها من أصحابه نحواً من أربعين ألف ﷺ أجمعين، وجمع بين الظهر والعصر ثم وقف بعرفة، وبات بالمزدلفة، وجمع فيها بين المغرب والعشاء، ثم أصبح فصلى الفجر في أول وقتها، وسار قبل طلوع الشمس إلى منى، فرمى جمرة العقبة، ونحر، وحلق، ثم أفاض فطاف بالبيت طواف الفرض وهو طواف الزيارة، ثم حلَّ من كل شيء حرم منه ﷺ، وخطب ثاني يوم النحر خطبة عظيمة أيضاً، ووصى وحذر وأنذر أشهدهم على أنفسهم أنه بلغ الرسالة، ثم أقبل ﷺ منصرفاً إلى المدينة، وقد أتم الله عليه النعمة وأكمل الله له دينه(٢) .

(١) الفصول في السيرة ، لابن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، (ص: ٢١٢، ٢١٣).

(٢) الفصول في السيرة ، لابن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، (ص: ٢١٦، ٢١٩).

وفاته ﷺ .

أقام ﷺ بالمدينة بعد العودة من الحج بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، ثم ابتدأ به الوجع في بيت ميمونة بنت الحارث ﵂ يوم خميس، وكان وجعاً في رأسه الكريم، وكان أكثر ما يعتريه الصداع ﷺ، فجعل مع هذا يدور على نسائه حتى شق عليه، فاستأذنهن أن يمرض في بيت عائشة ﵂، فأذِنَّ له، فمكث اثني عشر يوماً، وقيل: أربعة عشر يوماً.

والصديق ﵁ يصلي بالناس بأمر الرسول، وكان ﷺ قد جهزه جيش أسامة لغزو الروم، فلما حصل الوجع، تربصوا لينظروا ما يكون من أمره ﷺ وقد صلى الرسول ﷺ خلف الصديق جالساً.

وقبض الحبيب ﷺ ضحى يوم الاثنين من ربيع الأول، فالمشهور أنه الثاني عشر منه، وقيل مستهله، وقيل: ثانية، وقيل: غير ذلك.

وكان عمره يوم مات ﷺ ثلاثاً وستين سنة، على الصحيح، قالوا: وفي هذه السن مات أبو بكر وعمر وعلي وعائشة ﵃، ذكره أبو زكريا النووي في تهذيبه وصححه(١) .

(١) سيرة ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون (٢/ ٦٥٢).